الفارو سيبيدا سامورديو

@ketab_n
Follow Me
28.12.2015

البيت الكبير

تقديم
غابرييل غراسيا ماركيز

ترجمة
محمد علي اليوسفي

للثقافة والنشر والإعلام

الفارو سيبيدا ساموديو

البيت الكبير

تقديم: غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: محمد علي اليوسفي

للثقافة والنشر والإعلام

Twitter: @ketab_n

الفارو سيبيدا ساموديو: البيت الكبير

Twitter: @ketab_n

Book: al Bayt al Kabir

الكتاب: البيت الكبير

Álvaro Cepeda Samudio

تقديم: غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: محمد علي اليوسفي

Translated By: mouhammad ali al-yousefi

First Edition: 2015

الطبعة الأولى ٢٠١٥

All rights reserved

حقوق الطبع محفوظة ©

للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com

التوزيع: منشورات الجمل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ISBN 978-9933-35-220-2

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

Twitter: @ketab_n

مقدمة: غابرييل غارسيا ماركيز

«البيت الكبير» رواية مستوحاة من حدث تاريخي: إضراب عمال مزارع الموز على الساحل الأطلسي الكولومبي، عام ١٩٢٨، وهو إضراب أخمده الجيش بالرصاص.

مؤلف الرواية الفارو سيبيدا ساموديو، كان عمره وقتئذ ٤ أعوام بالضبط، وكان يعيش في مبنى خشبي كبير تشرف نوافذه الستّ وشرفته، المزينة بأصص مغبرة، على محطة السكة الحديدية التي اقترفت فيها المجزرة. رغم ذلك، لا يوجد في هذا الكتاب ميت واحد، والجندي الوحيد الذي يتذكر بأنه قد شكّ رجلاً بحربة بندقيته في العتمة، لم تتطلخ بدلته العسكرية بالدم «بل بالبراز».

هذه الطريقة في كتابة التاريخ، مهما بدت تعسفية للمؤرخين، تشكل درساً رائعاً في التحويل الشعري. فبعيداً عن إخفاء الوقائع أو تزيين وتزييف الخطورة السياسية والإنسانية لهذه المأساة الاجتماعية، توخى سيبيدا ساموديو إخضاعها إلى نوع من التطهير السيميائي ولم يقدم لنا منها سوى الجوهر الأسطوري، وهو ما

Twitter: @ketab_n

يتبقى دائماً، بعيداً عن الأخلاق والعدالة وذاكرة الناس الهشّة. فالحوار المُتقن وغِنى اللغة المباشرة والقول والشفقة المشروعه إزاء قدَر الشخصيات، والبنية المجزأة والغامضة نسبياً التي تشبه كثيراً بنية الذاكرة: في هذا الكتاب كل شيء يشكل مثالاً رائعاً على الطريقة التي يتمكن بها كاتب أمين من تجنب الكم الهائل من النفايات الخطابية والديماغوجية، الذي يتوسط السخط والحنين «النوستالجي».

هذا ما جعل «البيت الكبير»، لا مجرد رواية جميلة فقط بل تجريباً فيه قدر كبير من المخاطرة ودعوه إلى التفكير مليا في الثروة الغير منتظرة، الثروة التعسفية والمضنية في الإبداع الشعري. وهذا أيضاً ما جعل هذه الرواية مساهمة جديدة، مساهمه عظيمة، في أهم حركة أدبيه في العالم الراهن: رواية أمريكا اللاتينية.

غابرييل غارسيا ماركيز

(١٩٦٧)

Twitter: @ketab_n

تقديم المترجم

عندما صدرت «البيت الكبير» مترجمة إلى الفرنسيه عام ١٩٨٤ وجد فيها النقاد، وفي مؤلفها الفارو سيبيدا ساموديو، أبوة مالما يسمى بـ«الواقعيه السحريه» في أدب أمريكا اللاتينيه. وذهب البعض إلى اعتبارها النواة الأولى لروايات باتت شهيره مثل «مائة عام من العزلة» للكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، و«موت أرتيميو كروث» للمكسيكي كارلوس فوينتس، و«ماريل» لوخوليو كورتثار، و«أجمل تانغو في العالم» للأرجنتيني، أيضاً، مانويل بويغ... وغير ذلك من الأعمال الروائية.

عمد ساموديو إلى كتابة روايته التي بدأ بنشر بعض فصولها في منتصف الخمسينات، بأسلوب مختلف. في كل فصل يجمع بين الحوارات السرية والوشوشات الغريبة إلى جانب الصور الشعرية والصيغ التقريرية. وقيل عنه أنه أول من أدخل أسلوب الكتابة المقطعية في رواية أمريكا اللاتينية.

تغطي أحداث الرواية ثلاثة أجيال في منطقه لزراعة الموز، تشهد اضطراباً كبيراً يشنه العمال المياومون الخاضعون لقمع السلطة

Twitter: @ketab_n

التابعة للاحتكارات الأمريكية في الثلاثينات. وإذا كانت تلك الأحداث هي الخلفية البارزة لبقية أحداث الرواية، فإن ساموديو يركز عمله على عدة موضوعات توسعت فيها، فيما بعد، رواية أمريكا اللاتينية مثل العزلة والانهيار العائلي وارتكاب المحرمات إلخ ...

ولد ألفارو سيبيدا ساموديو عام ١٩٢٦. ومارس العمل الصحفي؛ حيث شغل منصب مدير صحيفة يومية هي «الدياريو دي كاريبي» كما أخرج بعض الأفلام القصيرة منذ ١٩٥٥. وارتبط بمدينتين في كولومبيا: سيانغا، وهي مرفأ لتصدير الموز، ومنها تنحدر عائلته، وقد قضى فيها فترة من طفولته، ثم بارانكيلا التي درس وعمل فيها.

في الخمسينات والستينات كان ساموديو ناشطا جادا ضمن «جامعة بارانكيلا». وكان من أبرز اعضائها غابرييل غارسيا ماركيز الذي يحيي زميله ويقر بفضله في تقديمه لهذا الكتاب، والرسام اليخاندرو اوبريغون الذي أهداه ساموديو روايته الوحيدة هذه، التي لم يكتب غيرها؛ إذا استثنيننا مجموعتين قصصيتين.

توفي الفار سيبيدا ساموديو في نيويورك يوم ١٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٢.

المترجم

نيقوسا ١٩٨٦/٨/٢٥

Twitter: @ketab_n

إلى اليخاندرو ابريغون

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجنود

ـ هل أنت مستيقظ؟

ـ نعم

ـ لم أستطع النوم، أنا أيضا: لقد بلل المطر غطائي.

ـ لماذا تمطر بهذه الغزارة، والموسم ليس موسم أمطار. لماذا تمطر بهذه الغزارة في رأيك؟

ـ لست أدري. هذا ليس أوان المطر.

ـ هل ترغب في سيجارة؟

ـ موافق

ـ يا إلهي! لقد ابتلت كلها

ـ لا أهمية لذلك.

ـ كيف سندخنها هكذا؟

ـ لا أهمية لذلك.

ـ بالنسبة لك، لا شيء يكتسي أهمية أبدا. أراهن أيضاً لا أهمية للمطر الذي منعنا من النوم.

Twitter: @ketab_n

ـ المطر لا يزعجني

ـ إذن لماذا لم تنم؟

ـ كنت أفكر.

ـ في ماذا؟

ـ في الغد.

ـ هل تشعر بالخوف؟ قال الملازم [أول] أن عندهم أسلحة، لكنني لا أظن ذلك.

ـ تساءلت لماذا يرسلوننا إلى هناك.

ـ ألم تسمع ما قال الملازم: لا يريدون العمل، غادروا المزارع وأخذوا ينهبون القرى.

ـ إنه اضراب.

ـ نعم، لكن ليس لهم حق في ذلك. وهم يطالبون برفع أجورهم أيضاً.

ـ انهم مضربون.

ـ طبعا، ولهذا السبب يرسلوننا إلى هناك: لوقف الاضراب.

ـ هذا مالا يعجبني. لأنه ليس لنا أن نفعل ذلك

ـ أن نفعل ماذا؟

ـ ان نوقف الاضراب.

ـ لنا ان نفعل كل شيء. أنا مسرور لمجيئي. لا أعرف المنطقة.

Twitter: @ketab_n

ثم أن المشاركة في عملية أفضل من البقاء في الثكنة: فلا فحص للمتاع ولا استدعاء من أجل التقرير. ولا مجال لدخول السجن.

ـ بل من الممكن ذلك.

ـ كيف؟ نحن في عملية.

ـ لست أدري. ولكن ذلك ممكن.

ـ في كل الأحوال، هذا أفضل من البقاء الثكنة.

ـ نعم، لكن ذلك ليس أمراً حسناً.

ـ وما أهمية أن يكون حسناً أو لايكون؟ المهم أننا في عملية ولسنا في الثكنة.

ـ بلى لذلك أهمية.

ـ ها أن الأمر يكتسي أهمية الآن: كل ما هنالك أنك خائف.

ـ ولماذا عساني أن أخاف؟

ـ اذن ما الذي يقلقك؟

ـ إذا كان الأمر يتعلق بإضراب، علينا أن نحترمه ولا نتدخل فيه.

ـ هم الذين كان يتوجب عليهم الاحترام.

ـ احترام من؟

ـ احترام السلطة، واحترامنا.

ـ نحن لسنا سلطة، نحن جنود، السلطة هي البوليس.

ـ صحيح، لكن البوليس لا يصلح لشيء. ولهذا يرسلوننا.

Twitter: @ketab_n

ـ كل ما هنالك أن الشرطة لم تستطع إنهاء الاضراب.

ـ أنت خائف.

ـ ربما! انا لست خائفاً. لكن لايروق لي الذهاب لوقف إضراب. وعلى كل حال ربما كان المضربون على حق.

ـ ليس لهم الحق.

ـ أي حق؟

ـ حق الإضراب.

ـ وما أدراك؟

ـ الملازم قال ذلك.

ـ الملازم لا يفقه شيئاً في هذا المجال.

ـ هذا صحيح.

ـ إنه يكرر ما يقوله المقدم.

ـ هذا الصباح، عندما كنا نحزم أمتنعنا، قال: أغطية خفيفة وحصائر فقط. وعندما كنا نتأهب للذهاب بالباخرة جعلنا نفتح أمتعتنا من جديد وأرسلنا إلى المخزن لجلب الأغطية السميكة. قال لن تسافروا على متن سفينة بل في مقطورات مسطحة. انه لا يفهم شيئاً من ذلك.

ـ ومن قال أنهم مسلحون؟

ـ الملازم، عندما دعينا إلى تشكيلة جدول الأعمال. ألم تسمع؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلا.

ـ من أين جلبوا الأسلحة في اعتقادك؟

ـ ليس عندهم أسلحة، لاشيء غير السواطير.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ إنهم عمال مياومون.

ـ وهل يكفي ذلك كي لا تكون لديهم أسلحة؟

ـ نعم، انه كاف.

ـ ساعدني على عصر الغطاء، لاننا عندما نبلغ الخليج سوف يهاجمنا البعوض. أمسك بالطرف الآخر. وغطاؤك أنت؟ الم تتغط به؟

ـ كلا.

ـ لقد تبلل تماماً.

ـ لا أهمية لذلك.

ـ ماذا فعلت بالغطاء.

ـ غطيت به بندقيتي كي لا يتسرب إليها الماء.

أُمروا بالمشي من الثكنة إلى المرفأ بعد الظهر، كانت المسافة قصيرة لكن الجزمات العسكرية كانت جديدة وواسعة، كذلك كان جلد الجعبات والجُرب جديدا، لم يلينه العرق بعد.

في المرفأ انتظروا عدة ساعات. كان عددهم كبيراً، وتوجب جر

Twitter: @ketab_n

زوارق الانقاذ قبل الابحار. بل أن الابحار كان بطيئاً أيضاً، إذ تم من الكوثل (مؤخر السفينة). وكانت مسامير الجزمات تنزلق باستمرار على الصفائح الملساء.

وأثناء انتظارهم أمروا بتقلد بنادقهم لكن المعترضات السفلى في السفينة كانت تعرقل مواسير البنادق .ونظراً لكونهم لم يتمكنوا من اجتياز الممرات المحاذية للمرجل بأمتعتهم ومطراتهم، فقد خلعوها وجابوا السفينة وعتادهم في أيديهم. كان الإبحار مضطرباً وبطيئاً. وعندما جاء دور الجنود الآخرين كانوا قد قضوا ساعات عديدة في الانتظار. جلسوا على نقالات رفع الأثقال، داخل زوارق الإنقاذ وبنادقهم بين ركبهم.

أحس البعض منهم بالخوف اثناء اجتياز النهر: كانت هناك رياح قويّة، ريح شهر ديسمبر، والزوارق تتقدم متثاقلة، متباعدة عن السفن التي كانت تسحب الزوارق، أو تتركها فتنطلق شظايا الخشب من ألواح القعر. أما الذين كانوا في الجؤجؤ (مقدمة السفينة) فقد ابتلوا.

وقبل دخول مياه الخليج تمكنوا من رؤية المدينة كلها مضاءة على الشاطيء المقابل، إذ لم يسبق لهم أن رأوها من قبل.

واعتقد كل واحد أنها تعرف على أضواء الأماكن المألوفة. ثم جعلتهم اول مفاجأة يجتمعون، وبحث كل صديق عن صديقه عبر الرؤوس الأخرى التي كانت تشرئب بدورها بحثاً عن الأصدقاء.

Twitter: @ketab_n

وقال كل واحد: الثكنة هناك، وامتدت الأصابع إلى كل الاتجاهات.

دخلوا الممر المائي وكأنهم يدخلون نفقاً. وكانت زوارق الإنقاذ العريضة والسفن بمقطوراتها المسطحة المفرطة في الطول تصطدم بحافتي الجرف المغطاتان بأشجار القرام، فتلقي كل صدمة بعضهم على بعض، وهم يحاولون تحاشي البنادق باستمرار حتى لا يصطدموا بها.

وكل ما كان جديداً: الحريق العجيب المندلع من المدافيء، حركات السفن المرتبكة والمنقادة تماماً مع رنين الجرس المتغيّر، حافتا الجرف اللتان تتقوران فجأة كاشفتين عن كوخ ونار موقدٍ ونباح كلب: كل ما كان جديداً صار غير متبدل، متكرراً ومألوفاً. عندئذٍ بدأ النوم يحني ظهورهم فيحنيهم على بنادقهم وعلى ألواح النقالات وعلى أكتاف وظهور وأوراك وخواصر الجميع.

فجأة بدأت تمطر.

ـ أشعر بالجوع. هل وصلنا؟

ـ نعم.

ـ منذ زمن طويل؟

ـ كلا، لم يمرّ وقت طويل على وصولنا.

ـ أنا نمت حال دخولنا إلى الخليج، لم أشعر بشيء. وأنت، هل نمت؟

Twitter: @ketab_n

ـ لا.

ـ هل كان ثمّة بعوض كثير في الخليج؟

ـ لا.

ـ ما يروى عن سُحب البعوض في الخليج مجرد مزاح. كنت أعرف ان ذلك مجرد مزاح.

ـ ليس مزاحاً.

ـ هل استمر نزول المطر طيلة الليل؟

ـ نعم.

ـ لماذا توقفنا هنا؟

ـ يقومون بفكّ الزورق.

ـ أين سنشرب القهوة؟

ـ لست أدري. ربما في المحطة.

ـ لماذا في المحطة؟

ـ يقال أنه لا توجد ثكنة هنا. ثم أنه يتوجب علينا تجفيف الأغطية، إذا أشرقت الشمس اليوم. ينبغي أن تجفف بدلتك.

ـ لا أظن أنهم سيتركون لنا وقتاً كيف نجفف أي شيء كان.

ـ هل نزل الآخرون؟

ـ كلا. نحن أول النازلين.

ـ انهض: لقد بدأوا بالنزول. أشعر بالخدر. يا للمطر اللعين.

Twitter: @ketab_n

ـ سيهطل أيضاً لوقتٍ قصير.

ـ لكن الذين بالمقدمة بدأوا بالنزول. كان علينا انتظار الصحو، لا شيء يُرى.

ـ الأمر عاجل.

ـ لماذا؟ آه، لوقف الإضراب.

ـ ربما لم نتمكن من وقف الإضراب.

ـ من المؤكد أننا سوف نوقفه.

ـ ربما لا.

ـ إذن أنت أيضاً تعتقد انهم مسلحون.

ـ كلا ليست بحوزتهم أسلحة.

ـ سيكون الأمر سهلاً.

ـ من يدري...

ـ انهض. جاء دورنا للمغادرة.

ـ انت أيضاً مستعجل

ـ انا لا يهمني الإضراب قطعاً: كل ما هنالك أنني أشعر بالجوع وبالخدر.

ـ هيا.

ـ كلا، انتظر: سأتبول هنا لأكمل البلل الحاصل.

عندما اصطدمت الزوارق بالتلعة المليئة بالماْ وتوقفت، استيقظ

Twitter: @ketab_n

الذين كانوا نائمين. لم يكن النهار قد طلع بعد. نهضوا ببطء: في البداية تحسست الأذرع والسياقن والأجساد جيرة أذرع أخرى، وسيقان أخرى وأجساد أخرى، لها: ثم تركت الأيدي ما تحسست وعادت إلى الإمساك بالنبادق للتعرف على أشكالها وأوزانها: وأخيراً بدأت العيون تميّز نقاط استناد في العتمة.

كانت كشافات السفن قد جابت جسور الزوارق بدقّة. كما لو كان الأمر يتعلّق بإهانة. فقد وجّه الضوء إلى عيونهم صفعات لاهبة. وغطى البعض وجوههم بأيديهم الخالية، في حين التفت غيرهم وأشاحوا بوجوههم عن الضوء الذي انزلق على خوذاتهم وأعناقهم المبللة. لقد استيقظوا كلهم الآن.

لم يكن النزول مفرطاً في البطء، ولا في الفوضى. كانوا يرغبون في التحرك والوصول. ولم يهمهم القفز في الماء العميق الذي كان يفصل «جآجيء» الزوارق عن حافة الجرف. كانوا يرغبون في الحركة فقفزوا إلى الماء وخرّ القاع تحت الثقل المضاعف لأجسادهم وأمتعتهم. كانت السيقان تنغرز في الوحل بعد تخبّط مقزز. لكنهم سرعان ما تحركوا وأسرعوا في اجتياز المسافة التي تفصلهم عن حافة الجرف وتسلقوا التلعة مستندين على أخامص بنادقهم.

ـ كانت جزمتاي هما الشيء الوحيد الجاف: أما الآن فأنا مبلل تماماً. سأخلعهما إذن.

Twitter: @ketab_n

ـ ما زال يتوجب علينا المشي حتى المحطة.

ـ سأفعل ذلك لتفريغهما، لقد امتلأتا ماءً.

ـ المحطة بعيدة.

ـ بعيدة جداً؟

ـ على بعد ميل تقريباً.

ـ وأين سنتناول القهوة، سُحقاً؟

ـ في المحطة.

ـ كان ينبغي أن نخيّم هنا ونشرب القهوة. وبعد ذلك يمكننا الذهاب حيث شاءوا.

ـ ينبغي أن نكون في المحطة عندما يصل القطار.

ـ القطار؟ أي قطار؟

ـ القطار الذي سوف ينقلنا إلى المنطقة.

ـ آه نعم، أعرف. لقد فسرت لي ذلك مساء أمس، لكني نسيت، مع هذا الجوع لا يمكن للمرء أن يفكر في أي شيء آخر. أي ساعة ينطلق القطار؟

ـ اليوم، لا أعتقد أن هناك ساعة محددة، عمال السكة الحديدة مضربون.

ـ هم أيضا؟ ولكن ما علاقتهم بالعمال المياومين؟

ـ ما من علاقة.

Twitter: @ketab_n

ـ اذن يقومون بدور القوادين.

ـ كلا. هم أيضاً لا يتمتعون بأية ضمانات. لقد أوقفوا القطارات لمساعدة المضربين.

ـ من الذي سوف يسوق القطار في هذه الحالة؟

ـ لست أدرى. سوف يرسلون فصيلة تبحث عنهم وتجبرهم على العمل.

ـ هذا فعل حسن.

ـ لماذا هو فعل حسن؟

ـ لأننا، إذا لم يتم ذلك، لن نستطيع الذهاب إلى القرى لوقف الإضراب

ـ من الأفضل عدم التمكن من الوصول إلى تلك القرى. من الأفضل الا يتوجب قتل أي كان.

ـ الأفضل هو الا نكون في الثكنة، مثل الآن انظر كيف لانت جزمتاي بالماء، لا أكاد اشعر بهما. المزعج انهما سوف تتيبسان كالخشب عندما تشرق الشمس.

ـ لا شك ان سائقي القطارات قد اختبأوا.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء.

Twitter: @ketab_n

ـ المس هذه الجزمة. أرأيت كم هي لينة. بلل جزمتيك لكي تلينا أيضاً.

ـ انهما مبللتان.

ـ اخلعهما واغسلهما كما فعلت انا. غطسهما في الماء ثم اخرجهما، غطسهما ثم اخرجهما، غطسهما ثم اخرجهما، هكذا تلينان وتصيران نظيفتين تماماً افعل ذلك وسوف ترى.

ـ لم يعد لدينا الوقت الكافي، ها هو ذا الرقيب قد جاء ليأمر بتشكيل الطوابير.

ـ لماذا سنشكل طوابير؟

ـ لكي يعدّونا.

ـ ماذا، هل يخافون من أن يكون أحد المبتدئين قد سقط في الماء. كان عليهم الا يرسلوا مبتدئين.

ـ لا، لا يخافون ان يكون قد سقط في الماء. بل ان يكون أحدهم قد هرب

ـ هرب، لماذا يهرب ونحن لسنا في الثكنة؟ هذا أمر غير ممتع، يهرب المرء عندما يكون في الداخل.

ـ قلت. يخافون ان يكون أحدهم قد فرّ.

ـ فار من الجندية، ان يكون هناك فار من الجندية، تعني؟

ـ نعم ان شئت.

Twitter: @ketab_n

ـ ولكن لا يكون هناك من يفر عندما نكون في عملية. الفار من الجندية هو ذلك الذي يهرب اثناء الحرب، ونحن الآن لسنا في حرب، نحن في عملية.

ـ موافق، ان يكون قد فر اذن، ان يكون قد فر لأنه لا يريد المشاركة في هذا.

(مائة وأربعون وثمانون..... مائة وخمسة وثمانون.....)

ـ تريد مزيداً من القهوة؟

ـ لست جائعاً.

ـ بعد ان جعلونا ننتظر كل هذا الوقت، لم يعطونا سوى القهوة. ما زلت أشعر بالجوع.

ـ خذ قهوتي.

ـ صحيح، الا تريدها؟

ـ كلا، ناولني سيجارة.

ـ لم تجف السجائر بعد.

ـ لا أهمية لذلك أعطني واحدة كما هي.

ـ أية متعة تشعر بها وأنت تلوكها؟

ـ ذلك أمر يسليني.

ـ أحشائي لا يسليها شيء، إنها تقرقر جوعاً. عندما تلوك التبغ يذهب عنك الجوع؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم.

ـ سألوك القليل، لأجرب، اين تعلمت ذلك؟

ـ منذ زمن طويل، في القرية.

ـ كان ذلك أيضاً من أجل إبعاد الجوع.

ـ نعم. لم يكن لدينا، البتة، ما يكفينا من الأكل.

ـ كما هو الشأن في الثكنة.

ـ هنا، لا يوجد أكل كاف لأن الرقباء يسرقون الأموال. أما في بيتنا فإن السبب يعود إلى عدم وجود المال الكافي.

ـ يسرقون المال والأكل، لقد اشتريت أكلا من المعتمد العسكري ويقال ان لزوجة الرقيب دكاناً تبيع فيه ما يسرق من التموين.

ـ لا شك ان الشخص الذي وقع على العقد المتعلق بهذه القهوة قد سرق الكثير، انهم لم يعطونا حتى الفطائر.

ـ سوف أسأل النساء اللواتي أتين بالقدور.

ـ لماذا؟ إذا علم الرقيب إنك تحاول الاطلاع، فسوف يضعك في السجن.

ـ هنا، لا يستطيع أن يضعني في السجن، نحن لسنا في الثكنة.

ـ سوف يعاقبك، أذن.

ـ ينبغي إخبار المقدم.

Twitter: @ketab_n

ـ المقدم يسرق أيضاً.

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ هو الذي يسرق أكثر.

ـ حسناً، كلهم يسرقون، لكن الرقيب أسوأهم، لأنه يسرقنا نحن، يسرق المال المخصص لأكلنا ويتركنا نتضور جوعاً، أما المقدم فإنه يسرق الحكومة، وذلك أمر ليست له أهمية.

ـ ذلك أهم، لأنه يسرق الوطن.

ـ الوطن ليس الحكومة، الوطن هو العلم. سرقة الحكومة لا تعد سرقة، كل واحد يعرف ذلك. تعال، لنرى هؤلاء، هناك. هلا أتيت؟

ـ كلا، على أن أنظف بندقيتي، لقد غطاها الوحل عندما كنا ننزل من الزوارق.

ـ بندقيتي أيضاً تلطخت بالوحل، لكنني لن انظفها الآن.

ـ أما انا فلن أبقي مع بندقية صدئة.

ـ أتعلم: يوجد نساء في هذه القرية.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ لا أحد. لقد رأيتهن.

ـ أين؟

ـ في ذلك البيت، عند زاوية الشارع، قبالة ذلك المكتوب عليه

Twitter: @ketab_n

فندق. ذهبت للبحث عن اللواتي أعددن القهوة، طلباً لشيء يؤكل: وإذا بالنافذة تفتح، ورأيت النساء.

ـ ربما لم يكنَّ هناك.

ـ بلى، كنَّ. يرتدين فساتين طويلة ووجوههن مطلية بالمساحيق. ثم أن القاعة كانت مزينة بورق «الكريب» كما في الحفلات الراقصة. من المؤكد ان هناك نساء هل تعتقد ان الوقت سيكفينا لنقوم بنزهة صغيرة إلى هناك.

ـ لست أدري.

ـ على كل حال، هن لسن فرنسيات، يبدو عليهن انهن من هنا.

ـ اذن ليس هناك نساء.

ـ هذا القطار لن يأتي أبداً

ـ من الأفضل الا يجيء.

ـ لماذا؟

ـ لكي لا يتوجب علينا الذهاب.

ـ وإذا أمرونا بالذهاب سيراً على الاقدام؟ من الأفضل أن يجيء.

ـ لن يجعلونا نذهب سيراً على الاقدام.

ـ ومن أدراك؟

ـ القرى بعيدة جداً.

ـ وهل زرت تلك القرى؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلا

ـ الى أيها سنذهب؟

ـ لست أدرى. ربما إلى كل القرى.

ـ هل هم مضربون في كل القرى؟

ـ المنطقة كلها في اضراب.

ـ والمنطقة هي كل القرى؟

ـ نعم.

ـ كم عدد تلك القرى؟

ـ لا أعرف.

ـ عدد كبير؟

ـ نعم عدد كبير. ما أكثر اسئلتك.

ـ وهل يزعجك ذلك؟

ـ الأمر سيان عندي.

ـ من الأفضل ان يكون عدد القرى كبيراً، لأننا سوف نقضي بسبب ذلك وقتا طويلاً لوقف الاضراب، ولن نعود بسرعة إلى الثكنة اشعر بالقلق هنا. من طول الانتظار، لماذا لا يصل ذلك القطار؟

ـ لا شك انهم لم يجدوا السائقين. ربما لم يتمكنوا من إجبارهم على المجيء.

Twitter: @ketab_n

ـ لو ذهبنا نحن لجئنا بهم ضرباً بأعقاب البنادق. لا شك انهم أرسلوا أشخاصاً خرعين. لو ذهبنا نحن لأتينا بهم منذ زمن طويل.

ـ أنت تعتقد ذلك.

ـ نعم كان بإمكاني جلبهم بأعقاب البنادق. لا أعتقد انهم مسلحون.

ـ ليس من حقهم ان يضربوهم. لا يمكنهم ان يجبروهم على المجيء إذا لم يريدوا ذلك.

ـ من المؤكد ان لنا الحق، ومن أجل ذلك نحن هنا.

ـ إنهم مضربون.

ـ اعرف، ولكن لا أهمية لذلك.

ـ بل لذلك أهمية.

ـ ان شئت. وهذا القطار الذي لا يأتي. يا إلهي؟

ـ هل تعتقد انهم سيتركون لنا وقتا لنقوم بنزهة صغيرة كي نرى النساء؟

ـ لا أعرف. أعتقد ان ذلك غير ممكن.

ـ ولكن بما أن القطار لا يصل. ينبغي عليهم أن يأخذونا إلى مكان ما. وهل وسنقضي النهار كله هنا، في المحطة؟

ـ إذا لم يصل القطار اليوم، فسوف يجعلوننا نقضي الليل في الثكنة.

Twitter: @ketab_n

ـ وهل توجد ثكنة في هذه القرية؟

ـ نعم.

ـ ولكن لا وجود لجنود.

ـ لا يوجد الكثير.

ـ وأين هي الثكنة؟

ـ في الساحة، قبالة الكنيسة.

ـ وهل تعرف القرية؟

ـ كلا

ـ أذن كيف عرفت؟

ـ الثكنات والكنائس دائماً متجاورة، وتوجد دائماً في الساحات.

ـ إذا قضينا الليلة هنا، سوف اتسلق السور، أرغب في زيارة النساء.

ـ لم أركب القطار قط، وأنت؟

ـ أنا نعم.

ـ عدة مرات؟

ـ نعم.

ـ تحب ركوب القطار؟

ـ أفضل رؤيته وهو يمر.

ـ أنا رأيت قطارات تمر مرات كثيرة، لكن لم أركب فيها البتة.

Twitter: @ketab_n

ـ سكنا فترة قرب موقف.

ـ مثل هذا؟

ـ لا، هنا محطة، هناك، لم يكن القطار يتوقف في كل مرة، إلا إذا كان هنا مسافرون. وكنا نذهب إليه كل يوم لنبيع التين. وعندما لا يتوقف كنا نأكل التين.

ـ إذن كان من الأفضل الا يتوقف.

ـ كلا، لأنه عندما يتوقف نتمكن من بيع بعض التين وهكذا نتمكن من الحصول على القهوة لصباحين أو ثلاثة.

ـ أفضّلُ التين على القهوة، وانت؟

ـ لا أدري. مرّ وقت طويل لم آكل التين وكانت هناك صباحات كثيرة لم نجد فيها قهوة إلى درجة انني فقدت الفرق.

ـ كيف كان التين؟

ـ كانت حباته كبيرة، بنفسجية، وفي داخلها حبوب صغيرة.

ـ وكيف كانت القطارات؟

ـ طويلة وزاهية، وعندما لا تتوقف يسلّم الركاب عبر النوافذ مُلوّحين بأيديهم، كان ذلك أجمل ما في الأمر.

ـ القطار الوحيد الذي رأيته هو قطار بويرتو كولومبيا، لكنه صغير جداًولم أره يسير. عندما يتوقف القطار لا يؤدي الناس التحية، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلا لا يحيّون. يكتفون بالنظر.

ـ هذه القرية ليست جميلة للناظر.

ـ كلّ القرى تتشابه.

ـ لكن هذه أسوأ. لم تسبق لي رؤية جدران يغطيها الملح. هنا لا يحتاج الناس إلى شراء الملح، يكفي ان يقشروا الجدران.

ـ هل هو ملح غير صالح للأكل؟

ـ لماذا؟

ـ لا أدري، لكنهم لا يستخدمونه.

ـ لا أحد يعمل في هذه الثكنة، كل شيء صدئ ومغطى بالملح.

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ هل لاحظت كيف لم يظهر أحد، عندما كنا نمرّ، حتّى الأطفال.

ـ لأنهم يعرفون لماذا نحن هنا، إنهم يحقدون علينا الآن.

ـ ولماذا عساهم يحقدون علينا؟ لسنا مسؤولين عن شيء.

ـ من يدري....

ـ انها غلطة المضربين.

ـ بل غلطة الشركة.

ـ موافق. ولكنها ليست غلطتنا في كلّ الأحوال.

ـ من يدري...

Twitter: @ketab_n

ـ هل رأيت البيت المجاور؟ انه كبير ويصل إلى الشارع الآخر، ومن هناك نستطيع ان نتسور الحائط، هذا المساء. انه مغلق تماماً، هل تعتقد ان فيه اناساً؟

ـ نعم.

ـ لا أهمية لذلك، الساحة تواجه ساحة الثكنة والجدار واطئ، ومن هناك يمكننا الإفلات.

ـ أنا لا أرغب في ذلك.

ـ أما أنا فإنني أرغب في ذلك، سوف أتسوّر الحائط هذه الليلة.

قطعوا المسافة من المحطة إلى الثكنة، مشياً. وهم يتقلّدون بنادقهم ويحملون أكياسهم على الأكتاف اليمنى، اجتازوا شوارع مغطاة بوحل أجاج دافئ، وبرك صغيرة مياهها مالحة وباردة. وخلع بعضهم جزمهم الناشفة وظلوا في الماء، يتخبطون في الماء الكثيف. لقد ساروا ببطء، دون أن يعيل صبرهم، وكانوا ينظرون دون أن يفهموا، إلى الأبواب والنوافذ المغلقة على جانبي الطريق.

كانوا قد امضوا النهار كله في المحطة، جلس أول القادمين على المقاعد الخشبية الطويلة في حين تمدد الآخرون على الأرض، مستندين بظهورهم إلى أعمدة الحديد الرمادي، أو مقرفصين. نام بعضهم وظل البعض الأخر ينظر مطولاً إلى السكك الفارغة التي تتصل ببعضها كلما ابتعدت وتضيع في نقطة واضحة، قرب سفح الجبل. وشعر الجميغ بالملل. ملّوا رؤية القرية المغلقة، الميتة،

Twitter: @ketab_n

التي تبدأ على مقربة من المحطة. وبعد ساعات لم يعد ذلك يعني لهم شيئاً؛ فتجمعوا حول ما كانوا يعرفون، بنادقهم وأكياسهم وأصحابهم. وكفوا عن انتظار أي شيء.

كانت المسافة بين القطار والثكنة قصيرة. ولقد ساروا بصمت، عبر شوارع وأمام بيوت صامتة.

كانت الثكنة وسخة وتكاد تبدو خالية. دخلوا بهدوء حتى بلغوا الساحة الوسطى المحاطة بأقواس وأبواب، والمبلّطة بآجر أحمر نديّ. بدأوا بتشكيل الطوابير: وكانوا قد تركوا أكياسهم إلى جانب، وبنادقهم إلى جانب آخر، وتقدموا إلى الأمام ثم إلى الخلف بخطى قصيرة ومثابِرة، وتراصفوا، ثم أخذوا وضع الاستعداد من أجل العدّ. وعندما أُمروا بالتفرّق عرفوا إلى أي الأبواب يتوجهون وعلى أي سرير يضعون أمتعتهم ويفرشون أغطيتهم. لقد صاروا هم أنفسهم مجدداً، عادوا إلى حياتهم الرتيبة.

ـ ما بك ألم تنم بعد؟

ـ لا أشعر بالنعاس

ـ اذن، سوف ترافقني

ـ كلا

ـ لديك مال؟

ـ قطعتا بيزو.

ـ هل تقرضني واحدة؟

Twitter: @ketab_n

ـ موافق.

ـ هل أنت متأكد بأنك لا تريد الذهاب؟ سوف نتسور الجدار، لقد رنّ الجرس المتعلق بإطفاء الأضواء.

ـ لا أرغب في الذهاب.

ـ ماذا لو أنك رأيتهن، أؤكد لك بأنه لا يبدو عليهن انهن فرنسيات.

ـ ربما لا وجود لهنّ.

ـ بلى، لقد رأيتهن. هيا بنا، ربمّا تركننا نخلع سراويلنا.

ـ لا أريد، لا أريد، لا أريد.

ـ طيب، لا تغضب.

ـ لم أغضب، كل ما هناك انني لا أرغب في الذهاب.

ـ سوف أعود حالاً. موافق؟

ـ نعم.

ـ هلاّ تفضلت بحراسة أمتعتي؟

ـ نعم. انتبه ربمّا كانت هناك دوريات.

ـ لا تقلق. لن يمسكوني. كنت أفضل ان نذهب معاً.

ـ لا أرغب في ذلك. إذا كان عليك أن تتسور الجدار، فافعل الأن.

ـ سوف أعود حالاً.

Twitter: @ketab_n

ـ اتفقنا.

كان القطار طويلاً، متنافر الألوان، وبدل ان يكون مفرحاً مثل القطارات الأخرى، كان بطيئاً، مختل التوازن، ومقطوراته المسطحة المفتوحة على المطر تتصادم ببعضها بلا سبب. توقفت القاطرة امام المحطة: القاطرة، لا المقطورات الأخرى. والذين كانوا في القاطرة وعلى سطح العربة الثانية لم ينزلوا، بل ظلوا جالسين وبنادقهم بين سيقانهم، ينظرون إلى سائقي القطار.

وعندما أعطي الأمر بتشكيل الصفوف، ركض أولئك الذين تفرقوا على طول القطار وهرعوا باندفاع مدروس وتجمعوا اما القاطرة. اتخذت المجموعة شكل خط مستقيم يمتد ويضيق حتى يصير متراصاً ومنتظماً. وعندما تلاشي صوت الجزم والبنادق والأكياس بدأوا بالعدّ. كان عددهم قليلاً، استدار الأول ربع استدارة إلى اليمين، حمل بندقيته وبدأ يمشي، اجتاز المحطة ودخل إلى القرية، وتبعه الآخرون بنفس الحركات. دار الاثنان الأخيران نحو اليسار، وضعا البندقيتين أفقياً على جعبتي الرصاص وشرعا يقومان بدور الحراسة التي لا تنتهي في المنطقة الترابية.

عندئذ سُمع صوت صفّارة، كان صفيراً قصيراً، حاداً بارداً، مثل سكين، مثل إشارة.

توقف الطابور. التفت البعض بطريقة آلية بلا فضول، ولا ذهول، فقط بطريقة آلية. ثم تابعوا سيرهم دون أن يفهموا شيئاً.

Twitter: @ketab_n

اجتاز نافخ البوق التابع للحراسة، الباحة التي ما زالت معتمة. وهو يركض، ثم صعد إلى المنصة. ملأ الصفير الواضح، الدقيق والمألوف الثكنة كلها.

وفي المراقد الطويلة الساكنة، بدأ حديد الأسرّة الصدئ بالصرير، وما هي إلا لحظة حتى غطت جلبة الأجساد والجزم والمطرات والبنادق، وضجيج السرعة المضطرب بشكل خاص، غطى كل ذلك صوت البوق.

اصطفوا في أربعة طوابير، وظهورهم إلى المصطبة حيث البوق ما زال يدوّي دائماً، بإلحاح. ثم سكت البوق وامتلأ الفضاء الكبير، الذي يملأه الضجيج بأنواعه، بالضوء الذي بدأ يسقط على الباحة.

ولم يلجئوا إلى العدّ.

بخطى دقيقة، تكتسب ايقاعها من الصوت الذي كان يقودهم، بنظام تام، البندقية على الكتف والكيس مثبت على الظهر، خرجوا من الثكنة، ساروا في الشوارع نفسها، ونَظَر كل واحد مُركّز على عنق من يسير أمامه، دون أن ينظروا إلى الجانبين وإلى فراغ الأبواب والنوافذ المفتوحة. وبخطوة واثقة ساروا عبر البرك الصغيرة والوحل الأجاج. كان ماء البرك ينبجس الآن تحت ثقل أجسادهم، ثقل المعدن والجلد المضاعف. وكان الطين يلمع متدفقا مع كل دعسة جزمة. ساروا كلهم في صفوف رباعية وصف واحد ثلاثي، حتى المحطة.

Twitter: @ketab_n

لم يكُونوُا الموت بعد، لكنهم كانوا يحملونه في أطراف أصابعهم، كانوا يسيرون والموت لاصق في أقدامهم، كان الموت يرتطم بخواصرهم في كل خطوة يخطونها، كان الموت يضغط بثقله على الترقوة اليسرى لكل واحد منهم، موت من معدن وخشب كانوا قد نظفوه بعناية فائقة.

أما الذين ظلوا في المحطة فقد تجمعوا في الجانب الآخر من الشارع، قبالة الفندق. أحسوا بالخوف في البداية، كانوا سبعة، لكن لم يُظهروا حركات معادية. لذلك لم يتبقّ لديهم سوى الفضول. كانوا هناك، في الجانب الثاني من الشارع، مع بنادقهم الموضوعة أفقياً على جعبة الرصاص، ينظرون ببساطة، دون أن يفهموا شيئاً ذا بال مما كان يحدث. بل دون أن يحاولوا الفهم أيضاً، كانوا ينظرون فقط إلى الطريقة التي كان الرجال يأتون بها جماعات متعاقبة، خارجين من كل الشوارع ومن كل البيوت التي كانت تبدو مقفرة وخالية.

وعندما التقت الجماعات في المحطة وشكلت حشداً كبيراً، صعدت إلى عربات القطار وفوق القاطرة. وعندما لم يتبقَّ مكان شاغر في العربات، تسلقوا سطوح العربات وسطح القاطرة. احتلوا القطار، ملأوه بثيابهم النظيفة، وقبعات القشّ الصغيرة المصفرّة، وسواطيرهم الغافية في أغمدتها الرثة. غطوا القطار، متكومين فوق العربات المسطّحة المكشوفة وفوق سطوح العربات المغلقة،

Twitter: @ketab_n

متمسكين بسلالم عُمّال القطار ودرجات القاطرة. وظلوا هناك، صامتين، حازمين ومسالمين.

ـ بحثتُ عنك في كل مكان ولم أجدك. لقد تملكني الخوف، تملكني الخوف عندما سمعت كل تلك الطلقات النارية. لماذا قتلتُمُوهم؟ لم تكن لديهم أسلحة. لقد كنت محقاً، ليست لديهم أسلحة، والأن ماذا سنفعل؟ ينبغي أن أعود، أريد رؤيتهم في النهار، أريد أن اعرف كيف هي في النهار. أتعتقد أننا سوف نعود إلى الثكنة؟ لا أتصور انهم سوف يتركوننا هنا مع كل هؤلاء الأموات. هل تعلم، لم اذهب إلى بيت النساء. لم احتج إلى الذهاب إلى بيت النساء. في البيت المجاور، تتذكر، البيت الذي كان مغلقاً، يوجد سكان. لا شك انها تسكن هناك لأنها كانت في الباحة، وحدها في الباحة. لم أر وجهها جيداً. وهي لم تتكلم أيضاً. بعد قليل، اجهشت بالبكاء، لكن دون صراخ، بهدوء، لم يكن صوتها يسمع تقريباً وهي تبكي. لا أفهم، لم أفهم من الأمر شيئاً. ينبغي أن نعود معاً، ينبغي أن تفسر لي. لم تلمسني، بل انها لم تتعلق بي، ولم ترفع ذراعها. لم تظهر أية مقاومة، تركتني افعل ذلك وعيناها مفتوحتان. لم أجبرها. استسلَمت دون مقاومة. لم أرها جيداً لكنها في سني تقريباً وكانت تفوح منها رائحة الكاننغا. في البداية كانت لها رائحة الكاننغا؛ بعد ذلك، صارت لها رائحة الدم. انظر إلى أصابعي؛ انها تبدو وكأنني جرحت نفسي. لذلك تأخرت،

Twitter: @ketab_n

لأنها سرعان ما دخلت إلى البيت، وأنا بقيت في الباحة، أنظر إلى الممر المعتم، لبثت الليل كله وانا انظر إلى الممّر، دون أن أعرف ماذا أفعل. الآن، أعرف ان ذلك الخوف قد تملكني قبل سماع طلقات الرصاص.

كانوا جالسين على سطح العربة، اقتربت. خفض أحدهم ذراعيه. لا أدري ان كان يتأهب للقفز. عندما رفعت البندقية، كان أنبوبها يكاد يلامس بطنه. لا أدري إن كان يتأهب للقفز، لكنني رأيته يخفض ذراعيه. ومن فوهة البندقية التي كانت تكاد تلامس بطنه، أطلقت الرصاص. تطاير في الهواء مثل طيارة من ورق، كان متمسكاً بطرف بندقيتي في البداية. وفجأة سقط. سمعت الطلقة وهي تخرج. انْفكّ عن طرف البندقية وسقط على وجهي، على كتفي، على جزمتي، عندئذ بدأت الرائحة. كانت رائحة براز. وغطتني الرائحة. مثل غطاء سميك دبق. شممت أنبوب بندقيتي، شممت قميصي من الأمام وشممت الكُمّين، شممت سروالي وجزمتيَّ، ولم يكن دماً، لم يكن دماً ذلك الذي يغطيني، كان برازاً.

ـ ليست غلطتك، كان يتوجب عليك القيام بذلك.

ـ كلا لم يكن يتوجب علىّ القيام به.

ـ هل أعطي الأمر بإطلاق الرصاص؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم.

ـ لقد أعطي الأمر بإطلاق الرصاص وتوجب عليك أن تفعل.

ـ لم يكن علىّ ان اقتله، لم يكن ليتوجب عليّ قتل إنسان لا اعرفه.

ـ أُعطي الأمر والجميع أطلقوا الرصاص، أنت أيضاً كان يتوجب عليك أن تطلق الرصاص، لا تنزعج إلى هذا الحدّ.

ـ كان بإمكاني ان أرفع البندقية، أرفعها وأصوّب فقط، دون أن أطلق الرصاص.

ـ نعم، هذا صحيح.

ـ لكنني لم أفعل ذلك.

ـ انها قوة العادة. لقد أمرُوا فأطلقت الرصاص، وليست غلطتك.

ـ غلطة منْ، أذن؟

ـ لست أدري. انها عادة الطاعة.

ـ ينبغي ان يكون خطأ شخص ما

ـ ليس خطأ شخص، خطأ الجميع، إنها غلطة الجميع.

ـ سحقاً، سحقاً.

ـ لا تنزعج إلى هذا الحد. هل تعتقد انها سوف تتذكرني؟

Twitter: @ketab_n

ـ في هذه القرية، سوف يتذكرنا الناس. في هذه القرية سوف يتذكرونا دائماً نحن الذين سوف ننسى.

ـ نعم، هذا صحيح، سوف يتذكرون.

Twitter: @ketab_n

الأخت

ماذا ستفعلين الآن؟ أراكِ لم تتحركي. كأنك لم تكادِ تنظرين إليهم. ولكن، صحيح، بأي عينين كنت ستنظرين إليهم. لقد اقتربوا منك وقالوا لك ذلك. قالوا لك ما كنا نعرفه جميعاً، وما كنا ننتظره جميعاً لأننا كنا نعرف أن ذلك سوف يحدث لها هي أيضاً. وهو ما كان يتوجب ان يعرفه الأخ قبل الجميع، والآن بالتحديد، لأنه أقرب الجميع إليهم.

ماذا ستفعلين الأن؟ كلا، نحن نعرف أنك لن تقولي شيئاً. لم تتكلمي أبداً عندما كنا ننتظر منك ان تفعلي ذلك. عندما كنا نفكر بأنه ينبغي الكلام. لتقديم توضيح أو المطالبة به. لكنهم في الحقيقة لم يقولوا شيئاً، بدورهم. لم يتوجهوا بالكلام إلى أي كان بالخصوص. البكر، وهي التي تكرهك أكثر، لأنها تحتفظ بذكريات أكثر، لمّحت إلى ذلك تلميحاً فقط. وإذا كنتِ تأملين أن يكون صوتها مشوباً بالعار والحياء، أو بالندم على الأقل، فقد خيبت ظنك مرة أخرى. قالت ذلك بكبرياء، وبرضى تقريباً. كما انها انتظرت كل هذا الوقت لتتأكد من الأمر أكثر. والأن تم لها ذلك،

Twitter: @ketab_n

كما لو انها شعرت بمتعة ان تقول لك ذلك مواجهة، وأن تقضي على مشاريعك للمرة الثانية دون إدراك.

قالت ذلك بطريقة أمّها نفسها، منذ ثمانية عشر عاماً، يوم وَسَمَ الأب وجهها بحلقة مهمازِه الذي خلعه لتوه. كان الأب قد ركب جواده طيلة الصباح وعندما رأيناه قادماً وسمعناه يقول لك، قبل أن ينزل من على صهوة جواده، اذهبي ونادي اختك، لم تسألي أيّ أخت منا، لأنك كنت تعلمين، بدورك، حقيقة الأمر. أدركتِ ذلك للتوّ. اجتزت الممرّ دون أن تنظري إلينا وبلغت نداوة المشغل الهادئ؛ حيث من المؤكد ان الأم موجودة لأنها ظهرت في الحال وتوجهت بخطى وئيدة إلى الخزانة التي أخرجَت منها زجاجة لبن رائب ووضعتها على المائدة، قبالة مقعد الأب. أخرجَت زجاجة ومنديلاً مطرّزاً، بعناية ومواظبة، كما لو كانت تحاول اقناع نفسها بأن حركتها صالحة لشيء ما، وان للزجاجة والمنديل وظيفة محددة تماماً، وان الزجاجة ينبغي أن تفتح. لكنها أدركت فجأة عدم جدوى كل ذلك الحذر لأن الأب جلس على المقعد، أبعد المائدة الصغيرة وبدأ يفك مهمازيه. ولكن قبل أن يتمكن الأب من ابعاد المائدة الصغير كانت الأم قد هُزمت أصلاً، مرة أخرى، حتّى وان لاحظت ذلك من قبل، قبل لحظة واحدة، عندما وضعت الزجاجة ثم المنديل. ولو انها عندئذ لاحظت غياب الكأس، حتى في تلك اللحظة، كان الوقت متأخراً لأن الأب قفز من على حصانه وكان يتوجه نحو المقعد.

Twitter: @ketab_n

وهكذا ظلت الأم واقفة في وسط الممرّ. لا تعرف اين تذهب الآن، منتظرة ان ينتهي الذي بدأ، غير مدركة تماماً ما الذي سيحدث، وتجهل أكثر بأية طريقة سينتهي، لكنها كانت تعلم ان شيئاً ما كان ينبغي أن يحدث.

عندما مررت أمام الأم مع الأخت التي كانت تتبعك ـ الأخت المصمّمة، لأول مرة، والمتعالية تقريباً ـ نظرت إليك الأم وأدركت الأمر. والآن وهي تعلم، فهمت انه لا مجال لفعل أي شيء. وأن أي محاولة، مهما كانت عملاً هيناً، سوف تكون من دون طائل، ولن تؤدي إلى أي شيء، وكما في البداية، عندما كانت لا تعلم بعد؛ وكان غياب الكأس يبدو لها مهمّاً، ما من حلّ سوى الانتظار ثم التفكير من جديد ثم عدم الفهم دائماً، حتى فيما يتعلق بالجزء الأبسط من المسألة، الكأس، وأخيراً التوقف عن التفكير، وعندما يضنيها الجهد، تسقط في حالة الغياب، استسلام ليست له، كم ترى هي عظمة الاستسلام، نظراً لكونها لم تتمتع أبداً بأي أمل في أي شيء آخر.

كان الأب يثبت نظره على المهماز الذي كان يمسك به في يده، مهماز الجزمة اليسرى، الوحيد الذي أسعفه الوقت بنزعه، عندما وقفتما أنت والأخت أمامه، أنت إلى جانبه قليلاً، وهي قبالته تماماً. لم يتكلم الأب. بل انه لم يطرح أي سؤال. ولم يكن ثمة داع لذلك، لأنه كان يعلم بالأمر، وعندما قال لك اذهبي ونادي

Twitter: @ketab_n

اختك، أدرك أنك تعلمين، أنت أيضاً. ليس لأنك سمعت بذلك أو قيل لك أو كُتب لك على قطعة قماش بنسْغ رديء لشجرة موز، بل لأنك كنت تعلمين، وكنت متأكدة من ذلك الأمر الذي كان كافياً بالنسبة له. لم يرفع رأسه حتى اللحظة التي أبعدك فيها بحركة بطيئة وقاسية من ذراعه؛ ثم ضرب الأخت، على وجهها تماماً، بالمهماز أي بجذع المهماز وحلقته وسيوره، لأنه كان يمسك به من الشوكة التي انغرزت بين أصابعه، وعندئذ عندما عاد إلى ضرب الأخت مجدداً، كان دم الأب أيضاً يبلل الوحل المتيبّس الذي صار أحمرا، وكان يغطي سيور المهماز. لم يكن هناك جدوى للكلمات لكنها نُطقت على كل حال. لم ينطق بها الأب، بل هي التي فعلت. كما لو كانت تلك الكلمات فيها منذ زمن طويل، منذ ذلك الوقت الذي لم يكن ليرافقهن فيه أحد، وحيث كانت تلك الكلمات وحيدة في جسدها النحيل المتشنج. نطقت بالكلمات كلمة كلمة، بهدوء وصفاء، وكانت الجملة المريعة تكبر كلما أضافات اليها كلمات أخري. رفع الأب ذراعه فغمر الدم معصمه، دمه هو شخصياً. كفّ عن الضرب وتابع الضغط على شوكة المهماز، لكنه لم يضرب مرة أخرى. دفع المائدة الصغيرة أكثر، وكان الذباب قد بدأ يغطي عنق الزجاجة. اجتاز الممّر وامتطى جواده، والمهماز لا يزال في يده.

لا أنت تحركت ولا هي. بعد ذلك فقط، وبعد أن انتهت الأم من وضع الكأس الكبير على المنديل، ذهبت إلى غرفتها. لم تفعلي

Twitter: @ketab_n

شيئاً لاستبقائها كان الاضطراب بادياً عليك بسبب الكلمات التي تفوهت بها.

أحدهم أخبر الأخ، أظنه أنت. في تلك الليلة دخل حصان الأخ حتى الممرّ تقريباً وهو يشخر. وظل هناك طيلة الليل، يتنفس بشدة. كان البيت هادئاً ومعتماً. وكان الطقس حاراً، رطباً ومالحاً، وأعتقد أن احداً لم يتمكن من النوم. سمعنا، وكل واحدة في غرفتها، خطوات الأخ الثقيلة، عندما توقفت أمام الفراش، فراشها هي. ثم ملأ صوتها القاسي كلّ الغرف، في صمت: أيها الأب الملعون، أيها الأب الملعون، عندئذ سمعنا لأول مرة نحيب الأخت.

عندما ملأت طبطبة البغال المكان المحيط بالسور، كنت قد وقفت ولا شك أنك سمعت الأخ يتحدث مع الأولاد ثم يمتطي صهوة حصانه مندفعاً، كانت رطوبة الصباح المبكر لا تزال تغمر السرج واللجام والرّكاب والحصان. سمعهم الأخ يقبلون وكان ينتظرهم في الممرّ. قال أحدهم: وصلوا. فسأل الأخ: كَمْ عددهم؟ فأجاب الصبي: ربما كانوا مائتين؟ لقد رسا قاربان مملوءان. عندئذ نظر الأخ إلى حصانه لأول مرة وقال: هيا بنا، ينبغي أن نصل قبلهم.

في ذلك الصباح عندما كنا نتناول الفطور جاءت «كارمن» تقول بأن محطة القطار تعجُّ بالجنود. رفعت الأخت وجهها، كان الدم قد تيبس وجف على خدها المجروح. نظرت الأم اليها ورفعت

Twitter: @ketab_n

يديها إلى فمها. عندئذ، قلت انت: لو انهم يتمكنون من قتلهم كلهم. فردّت الأخت: لن يقتلوهم كلهم، لن يقدروا على قتلهم كلهم. قالت ذلك ببساطة، دون أن ترفع صوتها، ولكنها بثقة، بثقة تامة.

كنتِ الأولى التي أدركت بأن الأخت لن تبقى كما كانت: لقد ولُد صوت في الأخت، صوت ذو كلمات جافة وواثقة. واثقة، بشكل خاص. وحتى إذا كان صوت اختك الجديد قد أذهلك، فإنك لم تبدِ شيئاً من ذلك. لكن الحقيقة أنك لا تعرفين الذهول ابداً، أنك تبدين متوقعة كل شيء. وعارفة بكل شيء مسبقاً. كما لو كان كلُ شيء يستجيب لخطة جاهزة سلفاً، مرسومة ومتوقعة بكل تفاصيلها. وهكذا لم يفاجئك هذا التغيير أيضاً. ولو كنت الأن قادرة على النظر اليها، لنظرت اليها بنفس الطريقة التي نظرت بها إلى الاخت صبيحة مجيء الجنود إلى القرية، قوية العزم، كما لو كنت تعترفين بالجميل؛ لأن ما توقعته، ما أحسست به، دون أن يكون واضحاً تماماً، بدأ يأخذ شكلاً محدداً ولم يعد يتوجب عليك الانتظار. كنت تعرفين ماذا تواجهين. كان بإمكانك مقارعة عدو ملموس، عدوّ معطى؛ يقف قبالتك، بوجهه المجروح، ويديه الملقاتين على المائدة، وجسده الهزيل النحيل يتحداك تحدياً مضاعفاً وهادئا.

تابعت كارمن روايتها عن المحطة التي كانت ملأى بالجنود

Twitter: @ketab_n

(ملأى بالكاتشاكوس(*) الذين جاؤوا من بارانكيلا قبل الفجر وسوف يذهبون إلى المنطقة للدفاع عن مصالح الشركة. كانوا مسلحين بشكل جيد وقد قال الكثير ممن كانوا كاتشاكوس ان رصاصهم من نوع دَمْدَمْ الذي يخترق سكة الحديد، لكن العمال الذين ذهبوا لرؤيتهم في المحطة قالوا انه لن يحدث شيء لأن المضربين ينتظرونهم في سيفيلا ليقدموا مطالبهم إلى الجنرال، وذلك لأن الحكومة بعثت بهم لكي تكف الشركة عن استغلال العمال اليوميين، والحقيقة ان الجنود بطريقة كلامهم يشبهون كثيراً أغلب قاطعي الموز الذين جاءت بهم الشركة خلال الموسم الأول لجني الموز في لاغابرييلا، عندما تم الانتهاء من انشاء السكك الحديدية، وعندما كان شحن عربات القطار يتم قرب الأشجار تحديداً، ويقال ايضاً ان لقاطعي الموز معارف بين الجنود لأنهم كانوا من الكاتشاكوس بدورهم، لكن ثمة أمر أخر، يتمثل في رفع أطباق القلْي في المحطة وإغلاق الخمارات الصغيرة، ويقال ان ثمة أمراً بعدم فتحها الا بعد عودة الجنود، لكن ليس من المعروف إذا كان العمدة أو الجنرال هو الذي أعطى هذا الأمر، لأن الجنرال لم يكن قد وصل بعد، رغم أنه كان أول النازلين من السفينة، غير ان

(*) كاتشاكو: تعبير تهجيني يطلقه سكان الساحل الكاريبي في كولومبيا على بقية سكان الداخل. وكان هذا التعبير يستخدم في الأصل للوصف أي شخص مسؤول يرتدي بدلة نظامية. ونظراً لكون سكان الداخل هم الذين يمارسون السلطة عادة، صار التعبير يدل على المنشأ الجغرافي.

Twitter: @ketab_n

عربة كانت تنتظره فانطلق مباشرة إلى الإدارة لكي يتحاور مع الغرينوس(*)، وبما أن الطريق سالكة، يقال انه سوف يعود في منتصف النهار، والذين ذهبوا إلى رصيف الميناء يقولون ان آخرين سوف يأتون لأن الذين ابحروا على متن السفينة «ايريس» دفعتهم الريح إلى شاطئ كواتربوكاس وهم ينتظرون تحسن الطقس، ويقول البحارة بأن أولئك لن يكفيهم الوقت لبلوغ المنطقة وسوف نتركهم هنا في انتظار ان يقوم الآخرون بالمهمّة، ويقال ان المهمّة تتمثل في اطلاق الرصاص عشوائياً على المضربين، والمدارس الموجودة على هذا الجانب من السكة أُغلقت ايضاً، ولا أحد يدري لماذا، ولقد ذهبنَ المعلمات، بفساتينهن الطويلة، إلى المحطة، وهن يتحادثن مع الرقباء، ويقال مع الرقباء لأنهم يحكمون الجنود ولا يحملون أكياساً وأمتعة، وليس لهم جزمات أيضاً، لأنهم يرتدون أحذية، وبما انهم لا يرتدون بدلات بيضاء ولا يتقلدون سيوفاً، فهم رقباء، ونظراً لكونهم من المدينة ويفهمن في هذه الأمور، فهن على اطلاع حسن، ومن المؤكد ان المدارس سوف تفتح مجدداً هذا المساء).

كلنا، ما عداك، تظاهرنا بعدم الاستماع إلى كارمن. صحيح أنك لم تطرحي عليها أي سؤال، ولم تقاطعيها، لكنك كنت تشربين كلماتها، كلمة، كلمة، ثم أنك لم تتحركي الا عندما بدأت تتحدث

(*) غرينغوس: تعبير تهجيني يطلق على الأمريكيين الشماليين.

Twitter: @ketab_n

عن النساء وعندما تعالى صفير حاد لقطار ينتمي إلى عصر آخر، قطار لا يمكن تسميته لأنه كان مجهولاً، عندئذ فقط وضعت المنديل على المائدة ووقفت دون استئذان.

تغلغل صوت ذلك الصفير الغريب في آذاننا وقطع تعاقب الصور التي كانت تطنّ حول كلمات كارمن اللاهثة. واحتفظت الأم بالسؤال الذي كان يراود عينيها الذابلتين؛ سؤال لن يستطيع أحد، حتى أنت، ان يجيب عليه. لأننا مهما فكرنا، مهما حاولنا تذكر أبعد السفرات، ما كنا لنتوصل إلى ايجاد ساعة أو مكان لذلك القطار. كنّا قد فقدنا نقاط الاستدلال من أجل قياس الوقت الذي كان عليه ان يمرّ بين استيقاظنا ونومنا. ذلك ان الرتابة المنتظمة والتامة في غير أيام الآحاد، كانت قد انهارت، كما لو ان أحدهم ضرب دون كلل صندوقاً للعبة دومنو، وأربك نظامها. انت، والأن الأخت أيضاً، صِرْتُما تعرفان بأن هذا القطار هو بداية توقيت؛ توقيت ليس جديداً؛ توقيت غريب لكنه ليس جديداً.

لم تكن الأخت في حاجة إلى من يخبرها، علمتْ بالأمر وفهمته تدريجياً، في حين كنا، نحن البنات الأخريات، نحاول التوصل إلى ترتيب الالتباس والفوضى في صمت القطارات. أظن انها كانت أول من علم بذلك؛ قبل الأب بكثير، وقبلك أنت بكثير. وحتى عندما قال الأب ذلك، مضطربا لأول مرة، مضطرباً وليس مندهشاً، وبطريقة قاسية طبعاً، لكنها كانت قسوة متسائلة لأول

Twitter: @ketab_n

مرّة، كانت الأخت هي الوحيدة التي لم تنظر إليه. لا يعني ذلك ان الأخ كان قد أخبرها، كلا فهو الآخر لم يكن على علم. (لم يعلم بذلك، بل لم يخالجه أي حدس به، بينما كان ينتظر وصول الصبيان، بلا حراك، والطين المتيبس تقريباً في جزمتيه يثقل على الملاءات والوسادات وقميص النوم وحتى أصابعه كانت تعبق برائحة قوية لدم متيبس، كان متمدّداً، وكان عيناه ثابتتين على عوارض الأسقف، متمدداً برقه إلى جانب الجسد المفتوح، الوديع، جسد الأخت التي كانت ترتعش أحياناً منتحبة نحيباً جافاً، مقموعاً). ولعله عندما سمع الخيول في الباحة، فكر بأنه في هذه المرة أيضاً لن يتمكن من الاختيار. كان عليه أن يذهب. لكنّ ما لم يفكر فيه، ما لم يكن ليتصوره، وما لم يكن بإمكانه إدراكه في تلك اللحظة، هو كونه لن يعود إلى البيت. ليس لأنك قد تمنعينه أو يمنعه الأب أو لأنه (إراديا، واستجابة منه لما يعتبره واجبه، البقاء مع الضحايا، تسريب حياته بعناد في أولئك الذين قد لا تبقى لهم شجاعة أو رغبة في المحاولة من جديد؛ لأن من شأن الأخ ان يفكر ايضاً بأن من واجبه ان يعيد إلى كل بيت وإلى كل جثة ما تم اجتثاثه منهما، ذلك المفهوم الغامض الذي لا اسم له والذي حّركهم، وجعل كل رجل يخرج وكل جثة تخرج من الأرض ومن البيت اللذان لم يكونا ملكاً لهم، بحثاً عن قليل من أرض أو قليل من بيت أو قليل من موت يخصهم، وذلك بالبقاء بين أولئك الذين فشلوا، لأنه الوحيد الذي يعرف بأنهم لم يغلبوا، كل ما هنالك

Twitter: @ketab_n

أنهم أجبروا على الاستلقاء والنوم فوق ارصفة المحطات المُحرَقة، النوم تحت ثقل الرصاص الحارق، لكنهم لم يغلبوا) كان قد قرر عدم العودة؛ لا استجابة لذلك، ولا حتى لما يمكن أن يكون أو لا يكون واجبه، بل استجابة لذاكرة الدم البسيطة التي استيقظت ارادياً وبراحة بال؛ وهو ما لا يمكن اعتباره ارتكابا للمحارم، بل هو دمه المتحرر المسّرح في جسد يمكن أن يكون جسده الشخصي، وليس عليه أن يختلط بدم آخر ما دام هو نفس الدم الذي يتصل بنفسه لكن، الأن، بعد كلماتك وكلمات الأب، فهمتْ الأخت تماماً، لأنها كانت تعلم بذلك قبل الجميع، لا مبررّ لعودة الأخ لأنها لن تكون في البيت أبداً.

لو كان بإمكاننا فهمك بطريقة أفضل، لو أنك وفرت لنا ذات مرة، فرصة كي نعرف كيف كنت، لو أنك سمحت لنا بدخول غرفتك ولو مرة على الأقل، لكنّا أشفقنا عليك الآن. كان يكفي النظر إلى المحجريْن الكبيرين الخاويين اللذين حُفرا في وجهك حتى تتملكنا الشفقة. لكنك لم تسمحي لنا قط ان نشعر بأننا أخواتك، لم تسمحي لنا بالانتماء إليك.

وحتى في أبعد بداية للذاكرة، أنت على انفراد وبعيدة عنا. كبرنا بعيداً عنك، بعيداً عن تعابيرك وكلماتك وأبسط فساتينك، جعلتنا على هامش كلّ تجاربك، أبسط تجاربك اليومية. أبعدتِنا عن كل ما كان بإمكاننا مشاركتك فيه. وما كان لك، كان لك وحدك. كنت

Twitter: @ketab_n

تأخذين ما تريدين بلا مقابل، ممّا كنا نكتشفه في حيز طفولتنا الضيق والمسطح. كُنّا في الأعوام الأولى نتبعك مندهشات خائفات، وهو خوف كنت تولّدينه وتشجعينه كي لا نتمكن حتى من لمح معرضك، السيرك المهلوس المكّون من صيصان مخترَقة بأسلاك مظلات قديمة، وفئران مدّماة مقطوعة الآذان والأذناب، كنت تجعلينها تدور في صندوق حلويات كبير. ومن كثرة رؤيتنا لك وأنت تلعبين بأغرب الأشياء واتفهها، لم نعد نحب الدّمى ولا الأشياء المصنوعة من أجلنا. ولأننا صرنا نريد ان نكون مثلك، كنا نقلد كل ما تفعلين، إلى حدّ إغاظتك. آنذاك كنت قاسية، قسوة مرتبة وفظيعة تزيد في إخضاعنا لمشيئتك.

لو أننا ذهبنا على المدرسة، ربما كانت طفولتنا مرحة، لكنْ عندما لمّحْت الأم، دون أن تقول أو تكشف حتّى عن رغبتها في ضرورة ذهابنا إلى المدرسة، أنزل الأب جريدته قليلاً كي نتمكن من رؤية عينيه وقال: ما يتوجب عليهن ان يتعلمنه سوف يتعلمنه هنا. وفي الغد بدأ التعليم اليومي الممل للحروف والأرقام والأماكن. كنت تجلسين وحدك في أفضل مكان أمام المائدة التي وضعت في غرفة الكتب وتتابعين بصمت، التوضيحات التي يخطها الأستاذ على قطعة القماش المشمعة التي أطّرها الأب في الجدار. ولم يكن أحد ليستغرب ان تكوني أنت الأذكى بيننا. كنت الأولى في تعلم القراءة. وفيما بعد لم تعودي تنتبهين للدروس، أو تجلسين إلى تلك المائدة، وكف الأستاذ عن طرح الأسئلة عليك. كنت

Twitter: @ketab_n

تجلسين في مقعد الأب المريح، الذي كان أكبر من حجمك، وتأخذين أي كتاب، أكبر منك أيضاً، من أول رف، ولا تعيدينه إلى موضعه الا عندما تنتهي دروس الصباح ونذهب لتناول الغداء. وذات يوم، ربما بعد أن انهيت كل كتب الرف الأول، وربما لأنك كنت أقصر من أن تبلغي كتب الرف الثاني، توقفت بكل بساطة عن الالتحاق بالصف. بعد الظهر ذاك، سأل الأستاذ الأم لماذا لم تلتحقي بالصف فلم تعرف بماذا تجيبه. كنت لغزاً أشد انغلاقاً من لغز الأب، لأنك ابنتها، منها ولدت، وتوجد قطعة من جسدها فيك، وهذا على الأقل، ما اعتقدَته في البداية. وفيما بعد لم تعد إلى التساؤل، سلمت بأنه، في فترة معينة من الحمل، من الحمل أو الإرضاع، حدث انفصام، وانفصال. اعتقد انها فكرت بأنك كنت غريبة عنها، ولا شيء يجمع بينكما سوى السكن والإقامة، وصارت الأم واحدة منا؛ لم تكن شخصاً منعزلاً بل كانت شخصية ذات وظيفة محددة تماماً، مثل وظيفة الأب، لكنها واحدة منا. نوع من كيان محايد مسموح بوجوده، بل ومفضّل، لكن ليس لصوته وأفعاله أدني أهمية في سلم التسلسل الغريب الذي كان الأب في البداية، ثم أنت فيما بعد، قد فرضتماه في العائلة.

أما ان تتمكني من تدبر امرك وحدك، من دون مساعدة الام، خلال كل تلك الأعوام، أعوام القلق والاكتشافات المكربة الدائمة، فقد كان يدفعنا إلى مراقبتك باهتمام كي نرى ان كنت أنت أيضاً، ان كان جسدك يطقطق أيضاً بألم صامت، مثلما هي حالتنا.

Twitter: @ketab_n

ذات يوم، بحثنا عنك الصباح كله، ووجدناك أخيراً في باحة الخيول، جالسة على كرسي قديم، تنورتك مشمّرة على بطنك، وكنت تنظرين إلى ما بين فخذيك وقد بدأ يتلطخ بخيط متواصل من الدم. وعندما أدركت اننا نظر اليك، ضممت فخذيك وصرخت فينا من دون غضب. اذهبن اذهبن.

في تلك الليلة، اقتربت الأخت التي كانت لا تزال صغيرة، اقتربت من فراشي وقالت لي: هي مثلك.

أنت جالسة على مقعد الأب، دون حراك كما لو كنتِ ميتة، لكنك لست مهزومة. انه أمر يعرفونه، كانوا قد عرفوه حالما بدأ الصراع. لن يتمكنوا من التغلب عليك، وسوف يكون الصراع شرساً، مستمراً، لا ينتهي، لأنك لن تتركيهم يهزمونك، علمتهم كيف يقفون في وجهك، فضلت تمردهم لأنك أدركت بأنها الطريقة الوحيدة للتوصل إلى اتفاق. جعلتهم يجيئون عندنا، إلى بيتنا، ليقفوا في وجهك، ليس ذلك لكي يصفحوا عنك بل محاولة منك ان تبرهني لهن بأنك كنت محقة. الا انهم بتّوا في الأمر في وقت أسرع مما توقعنا. فوضعوا القواعد وحددوا المخرج والنتيجة. أو بتغيير آخر، أدركوا ان لا مخرج ولا نتيجة. كثيراً ما تساءلنا لماذا تواصلين، لماذا لم تتركي كل شيء لأنك كنت تدركين ما من حل، ما من لحظة من شأنكم، أنت وهم. ان تقولوا فيها: حسناً، لم نتواصل حتى إلى التباغض، لنعلن هدنه، لا بقصد العودة ثانية إلى الصراع، بل من أجل ترك كل شيء على حالته، غير مكتمل.

Twitter: @ketab_n

ربيتهم في هذا البيت، بيننا، وبين قومنا، فرضتهم، كانوا يأكلون قوتنا ويتنفسون رائحتنا، كي يتعلموا منذ البداية انهم جزء منا، ثم انتظرت بفارغ صبر حتى يكبروا لتبرهني لهم ان العائلة سوف تستمر، وأننا سوف نستمر شاءوا أم أبوا، لأن ذلك هو كل ما تستطيعين فعله، حتى لا يضيع الأب واسمه. أدرك الأب انه يستطيع الاعتماد عليك في ترميم وتخليد ما تحطم وتفسخ وانتهى. لأن الشيء الذي لم يتمكن من المقاومة والبقاء عندما هبت تلك الريح العاتية، الشرسة، العفنة، الغريبة ـ الشيء الذي لم يتمكن من المقاومة والصمود لأنه لم يكن مبنياً على قيم صلبة، بل على تقاليد واهنة ومتعبة ـ كان ينبغي ترميمه وإعادة بنائه، بكل عناد، على نفس الأسس المتداعية، سواء لأن الأوان فات لتغييرها أو لأنه لم تكن هناك معرفة بها ولا حاجه للبحث عن غيرها.

إنه شيء كنت قد أدركته جيداً، كما تدركين كل ما يتعلق بالأب. وعندما كان الأب يعود إلى البيت، بلحيته الشائكة المغبرة، وبرائحة خضراء تملأ جسده كله، كنت الوحيدة التي تقبلينه دون أن تغمضي عينيك. وبعد القبلة الاجبارية التي تهيج جلدنا بقية الليل، كنت تمكثين على ركبتيه وتنامين. ولا مبرر لأن تتصرفي هكذا لأن الأب عندما يأتي بالهدايا، كان يأتي بها متساوية للجميع. لم نكن ندرك أنك كنت تحبين تلك القبلة.

عندما توصلنا في النهاية إلى اكتساب مشاعر محددة إزاء

Twitter: @ketab_n

اشخاص البيت، عندما تمكنا من التمييز أخيراً بين الخوف والحنان، اخترنا الخوف من الأب، وانت، اخترت ان تحبيه. ورغم ان كل شيء قد تحدد نهائيا. ظل الأب يعتقد ان من واجبه معاملتنا جميعاً بنفس القسوة. لكنك كنت الوحيدة التي تجرؤ على كبح قوانينه، واختراق ممنوعاته ومناقشة قراراته الحاسمة.

لم نعرف متى قرر الأب تقبل هذا الأمر، بل انه لم يكشف عن تقبله له. كان ذلك اتفاقا ضمنياً بينكما، توصلتما إليه من دون كلام ومن دون شروط. لا شك انكما نظرتما إلى بعضكما، ذات يوم وحينها فكرت: انا مثله، لن يتمكن من الهيمنة علي، سوف ندير هذا البيت معاً وعندما يغيب نهائيا، أديره وحدي، وفكر هو: دمي كله هناك، انها مثلي، سوف تأخذ مكاني، يمكنني الوثوق بها. ولا شيء أكثر. لم يكن هناك مجال للكلام.

وصار ذلك محدداً وثابتاً. أدركته الأم أيضاً دون أن يقوله لها أحد. أدركته بذهول متعاقب. وتقبلته، كما كان يتوجب عليها ان تتقبل كل شيء: لأنه أمر واقع. أمر لم تلعب فيه أي دور. كما لم تلعب أي دور في اختيار زوجها مثلاً. قيل لها بكل بساطة: هذا سيكون خطيبك ثم: سيكون زوجك. من دون أي توضيح آخر. سواء حول معنى خطيب أو الطريقة التي يتحول بها إلى زوج. وفي الصباح، دون أن تتمكن من النوم كانت منهمكة، خائفة، تخشي النظر إلى ساقيها المبتلتين، وهي لا تزال مضطربة وقد فقدت أي أمل في التوصل إلى الفهم.

Twitter: @ketab_n

صباح ذلك اليوم قال لك الأب: تعالي معي. لم يقل لك إلى أين سيصطحبك، كنت تعرفين ذلك. وفي البيت كنت الوحيدة التي تعرف ماذا يحدث. وطيلة الايام الأربعة التي استغرقتها القضية، لم تقولي شيئاً. ولا حتى فيما بعد. علمنا بذلك لأن حقد القرية تسرب إلى البيت مثل رائحة حارة ومالحة. ويوم الأحد التالي، في الكنيسة، كان الناس ينظرون إلينا وكأنهم قد اكتشفونا من جديد. لم نكن نعرف انهم حصلوا على مبرر جديد للحقد.

علمنا بالأمر، شيئاً فشيئاً، كما كانت الحالة دائما. عبر القليل من حديث الخادمات، في المطبخ، عبر جملة قالتها الخياطة، عبر الاحتجاج الصامت للصبيان الذين كانوا يأتون بصفائح الحليب في بداية الصباح وكنا نتمكن من سماعهم لأن الحرارة واجسادنا كانا منعاننا من النوم طوال الليل. ومن خلال النحيب الهامد للنساء اللواتي بدأن يأتين لرؤيتك عرفنا معنى القضية، وفي الظاهر لم يصدق أحد في القرية ان الأب سيكون قادراً على ذلك. لكن عندما رآك الناس تدخلين معه، أدركوا انه أقدم على ذلك فعلاً.

استطاع خلال أربعة أيام في الصباح وفي المساء، ان يواجههم جميعا، واتهمهم واحداً واحداً، حتى أقروا بذنبهم ولا شك أنك سمعت أشياء في منتهى الفظاعة، لأنهم عندما أدركوا انهم في خطر، ويكفي ان يتهمهم الأب، تشجعوا وتكلموا ضده.

لم نوجه إليك أي سؤال حول القضية قط. ربما لأننا كنا نعرف

Twitter: @ketab_n

ان سؤالك غير مجد، لأنك لن تقولي شيئاً. لن تفسري ذلك الحقد الجديد الذي توجب علينا تحمله دون معرفة سببه، ودون أن نكون قد ساهمنا في إثارته.

لم نعرف ماذا قيل في قاعة المعمدية الصغيرة، تلك القاعة الصغيرة، الوسخة والخانقة التي وقعنا فيها، فيما بعد، على أوراق بيع «لاغابرييلا». لم نعرف ماذا قال الأب ولا ماذا كنت تفعلين هناك. لكنكما، في اليوم الرابع، عدتما باكراً، وسمعنا الأب يقول: كانوا آخر من هنالك، لقد انتهينا من أمرهم. ثم سمعناك انت: والذين تبقوا وأبناءهم وأبناء ابناءهم لن يحاولوا ان يضربوا مرة أخرى، لن يتجرأوا.

ولا شيء أكثر من ذلك. توقفت قصة القضية عند ذلك الحد. لم يكن من حقنا معرفة المزيد. ولم يبق لنا سوى الانتظار، انتظار تراكم الحقد حولنا قليلاً قليلاً، حتى يملأ كل الزمن الضروري قبل انفجاره، ويطفو على السطح من جديد، فيحاصرنا ويجفف الهواء الذي نتنفس. الهواء الذي كنا نتنفسه، كلنا، ما عداك. لأنك كنت محصّنة ضد حقد القرية. كنت محصّنة ضد ما أثرته بنفسك، أثرته لأن الأب لم يكن بوسعه ان يتصرف بمفرده. كانت القرية تعرفة جيداً، ولذلك لم تعتقد انه سوف يفعل ما فعل، انه سوف يحكم على قادة الاضراب، واحداً واحداً، بكلماته. لكنهم لم يفكروا فيك أنت. لقد احتاج إليك الأب إلى طاقتك، إلى عجرفتك. إلى رغبتك

Twitter: @ketab_n

في تخليد كل ما يعنيه اسمنا. تخليد ذلك بطريقة أو بأخرى، حتى وان كان بواسطة الحقد. وعندما جاء زمن الندم كان عليك انت، لا الأب، مواجهته.

كانت نساء العمال يدخلن متشحات بأثواب الحداد مسبقاً، عبر باب الخيول ويطلبن رؤيتك. لا يطلبن رؤية الأب بل رؤيتك أنت. لأن القرية صارت تدرك حضورك وقوتك. أدركت القرية أنك أنت التي تخوضين المعركة، أنت العدو. كنت تركينهن يتحدثن. وكانت الأخت أحياناً، تسمع بعض الكلمات التي تبلغ المشغل فتبكي من دون ضجة، بعضهن كن يرضين بالأوراق النقدية، ويعدن مذهولات متجمدات، أما اللواتي بدأن يدركن معنى الألم فقد كُنّ يصرخن ويمطرنك باللعنات.

ماذا ستفعلين لها؟ الآن وقد قالت لك ما كان بوسعك ان تعرفيه، والا يفاجئك، لأنه الطريقة الوحيدة عندها لهدم ما امضيت اعواماً عديدة لإعادة بنائه. ماذا ستفعلين الآن وقد اقتربت منك وبكلمات قاطعة ودقيقة مثل منقار ببغاء أفرغت محجريك؟

لم يعد أمامك وقت لتعيدي الكرة. ولتقولي لنفسك: من هنا ذهب كل شيء، كي تذكري نفسك وتعترفي وتدركي انها نقطة الانطلاق الوحيدة نحو المهمة الفظيعة، جمع قطع ما تم كنسُه ووضعها في محلّها. لم يعد امامك الوقت الكافي لأنهم لن يدعوك. لن يتركوا لك أياماً وأشهراً لتتصوري وتبحثي وتحلي. سوف

Twitter: @ketab_n

يصرون. سوف ينهشونك حتى تقرري؛ فلن يُكتب لهم الخلاص إلا إذا اعترفتِ بأنهم ليسوا جزءاً منا، ولا يريدون أن يكونوا جزءاً منا، لا يريدون أن يكونوا امتداداً لشيء ولى وانتهى: لبيت مهجور وميت. وانهم يشكلون بداية أخرى، بداية شيء أخر منذور للفناء أيضاً مثل عالمنا؛ لكنهم يريدون أن يكون ذلك هو امتيازهم. وبخاصة هي، هي التي تكبدت الألم والمشقة، وربما القرف، لتبرهن لك، بالطريقة الوحيدة الممكنة، إنك فشلت. والحقيقة انه ليس امامهم وقت كاف للانتظار، بدورهم. وأنت تعرفين ذلك بدورك.

لن تفعلي ما فعل الأب لن تَسِميها في وجهها. وليس ذلك لأنهم قد يمنعونك من معاقبتها جسدياً بل لأنها سوف تكون غير مبالية بالعقاب. ولأنك ايضاً أذكي مما كان عليه الأب. لن تفعلي ما فعل الأب. ركوب جواد لمدة ثلاثة أيام ذهاباً، وثلاثة اياباً، في نفس الأسبوع، بحثا عن رجل يشبهنا في شيء ما ويكون مختلف عنا، في آن، ليمثل شكلاً من أشكال العقاب ويجبر على فعل شيء ربما لا يريد فعله لأن كمية الدم المتشابه، تلك الكمية العرضية الضئيلة تقول له بأن ذلك لن يحل أي شيء. ثم، ولمدة ثلاثة أعوام، القضاء بطريقة مجدية على كل ما ولدته العادة المريحة في الوجود معاً والنوم معاً والأكل معاً. الدفع بفعالية نحو اللحظة التي تتمرد فيها تلك الكمية العرضية الضئيلة من الدم المتشابه التي تكررت كل تسعة أشهر، ثلاث مرات في سبعة وعشرين شهراً. ركوب الجواد

Twitter: @ketab_n

مجدداً ثلاثة أيام وإطلاق الرصاص، دون النزول عن صهوة الحصان، مرات كافية لقتل الرجل الذي أدرك بلا شك انه محكوم بالموت بتلك الطريقة منذ اللحظة التي لم يتم فيها تفادي ولادته (لقد تمت محاولة ذلك غير أن تلك الكمية العرضية الضئيلة من الدم المتشابه هي نفسها التي ثبتته بصلابة في بطن متهور. ثم العودة إلى القرية بالجثة التي بدأت تتعفن ملفوفة ومشدودة في أرجوحة نوم، ودفنها هنا كي تتمكن القرية من التذكر والحقد أكثر).

ويبدو ان الطلقات الأولى قد ضاعت مع صوت المطر، ولم نتمكن من سماعها في غرفنا. ولكن عندما فتحت لهم البوابة، وبينما كانوا يسلكون الممر المبلط الذي يفصل الأرض المسورة، لم تتمكن الأمطار من تغطية وقع الحوافر الستة عشر. وبعد جلبة الجزمات والمهاميز والسيوف وأخيراً عباءات الفرو امتلأ الهواء في كل فضاءات البيت بصوت المطر المتخلص من تلك الجلبة، وبلحظة الوصول: «لا، ليس الأم، هي لننبهها، لنحذرها، هي». ثم الكلمات. لا المطر ولا الوصول ولا الصوت. الكلمات. لقد قتلوه في سيفيلا ضرباً بالمعاول. عندئذ بدأ بكاء الأم الأخرق.

والكلمات التي لا تتوقف: شاهده أحدهم وهو يدخل وحيداً عند ديمتريو فانتظروه في الممر، تعلقوا به مثل النمل ولم يتمكن من إخراج مسدسه، لا شك انهم قد جردوه منه لأننا لم نجده. وعندما تركوه كان للآخرين عدة جثث حوله: ضربوه بمعدن

Twitter: @ketab_n

الأدوات حتى سقط. وعندما وصلنا وجدنا بعض المعاول ما تزال مغروزة في جسده. ثم الكلمات، البكاء، الجزمات، المهاميز، الحوافر، الخيول، في كتلة واحدة من الضجيج، كانت تملأ وتملأ اجسادنا حتى اللحظة التي طفحت فيها عيوننا بعويل أجشّ مالح.

دخلت اثناء هطول المطر وقالت لك: تعالي، تعالي، جففي جسمك، أنت مبتلة تماماً. كان ذلك بعد وقت طويل من رحيل الجنود. بعد وقت طويل من امتلاء البيت بجلبة البكاء الرتيبة. وضعت يديها على كتفيك ودفعتك حتى قاعة الأكل. وبشعرك الملتصق على وجهك والمطر الذي كان لا يزال يتقاطر من قميص نومك، كنت تبدين كما غريقة، أجلستك على مقعد الأب. فبقيت هناك الليل كله، أو ما نبقى منه. جامدة، صامتة. ولم تكوني تنظرين الينا. كانت عيناك وانتباهك وارادتك كلها مركزة على المطر الذي يفصلك عن البوابة التي منها دخل الضجيج، والصوت وكلمات هزيمتك الأخيرة. فجأة انطوى جسد الأخت، وسقطت على ركبتيك وبكت، بكاءً، جافاً، مخنوقاً.

عندئذ سمعنا كلماتك، كلمات لم تكن موجهة إلى أي واحدة منا، بل إليك وربما إلى الأب الميت: لن يروني أبكي، لن أمكّنهم من هذه المتعة.

وهكذا لم تشاهدك القرية تبكين.

حتى عندما تجمعت القرية كلها أمام البيت لما جيء بنعش

Twitter: @ketab_n

الخشب الرطب، المسمر على عجل، حيث كان يمدد جسد الأب الممزق. وانتظرت القرية هناك طوال النهار حتى يُحمل إلى الكنيسة. ثم انتظرت في فناء الكنيسة حتى يسكب القس مزيداً من الماء على النعش الذي صار الآن مسمراً بطريقة أفضل، واقل خشونة، بل ومدهوناً باللون الأسود. وتبعته حتى المقبرة ورأته ينزل إلى قاع الحفرة التي بدأت تمتلئ بمطر النهار، متأرجحاً فوق الحبال، وانتظرت حتى تغطيته بالطين المالح ووضع باقات زهور مكسّرة وسخة فوق الطين المالح الأجاج. وبعد ذلك اجتمعت من جديد أمام البيت المغلق الذي لم تكن تخرج منه سوى الموسيقى الرتيبة المنبعثة من الصلوات المرتلة جماعياً. وبعد الليلة التاسعة لم تعد مرة أخرى. ربما لأن كل واحد قد فكر بأن جثة الأب المُهشَّمة، أقوى من القرية بكاملها.

بعد اليوم التاسع، انتظرتِ ايضاً ان يخف هطول المطر كي ترسلي للإتيان بهم. ولا يعني ذلك أنك كنت تأملين في عودة الأخ والاتيان بهم، كنت تعرفين ان الأخ لن يعود، وينبغي اجباره على ذلك، والطريقة الوحيدة لإجباره على ذلك هي ان ترسلي للإتيان بالأطفال، مع اعلامه بأنك تريدينهم في البيت، في البيت الذي من حقهم ان يعيشوا فيه ويُرَبَّوا. وتوجب عليك أن تتنازلي لأول مرة، ان تقولي لنا جميعاً: نحن بحاجة إلى تجميع دمنا وتجذيره في بيتنا لدعم ما يتداعى.

Twitter: @ketab_n

وفي تلك المرة، أتى بهم الأخ، وعهد بهم إليك لتربيهم وتجعليهم جزءاً من البيت. وبقي ليرى كيف سيقتلعون عينيك ويهزمونك. لأن الأخ كان يعلم بأن كل محاولة منك لتخليد الأب مصيرها الفشل. لذلك يكتفي الآن بالنظر اليك. وهو لا ينظر إليهم، بل ينظر اليك. منتظراً تسليمك بهزيمتكما معاً، هزيمتكما النهائية، أنت والأب.

لم يفعل الأخ أي شيء آخر غير الانتظار، انتظر ثمانية عشر عاماً وتسعة أشهر ليعلم علم اليقين بما سبق له ان حدس به، بأن الجثث الممددة على طول سكك الحديد والمكدسة في محطات القرى لا تعني انهم أخطأوا، لا تعني انهم غلبوا لأن الذين أسقطوا أجساد الفلاحين على سواطيرهم كانوا على حق. لقد احتاج إلى كل هذا الوقت حتى يرى هذا العرق المعتمد على البنادق ينهار.

التفتّ إلى الأخ. أدرتِ محجريك المستديرين الفارغين والجافين نحو المكان الذي قام فيه بحركته الآلية والمنتظمة لنفض غليونه والقاء الرماد ثم حشو وريقات التبغ داخل الغليون، لو كانت لك عينان لرأيت تعب الأخ. تعب متراكم في عظامه، كبر معه، محولاً حركاته عن هدفها، جاعلاً إياها أقل دقة، أقل حسماً. تعب مقيم فيه، لا على جلده ولا على عضلاته، بل في قلب هيكله العظمي. انغرز هناك كي تصعب مكافحته ويتعذر إخراجه. ثبته هناك الاقتناع بأن أي عمل أو محاولة لتغيير ما حددته إرادة الأب، لن يؤديا الا

Twitter: @ketab_n

إلى خسارة فرصة للاستسلام. تعب متولّد من يقينه بأن كل ما قُرر له، حتى قبل ولادته، سوف يدوم إلى أبعد من موته، وذلك رغم رفضه في البداية، وتحطيمه فيما بعد، وتغييره، من خلال وجوده الشخصي وعنف أفعاله، بكل ما قرر له. تعب متولد من ضرورة متابعة الصراع ضد ما كان واضحاً منذ البداية ان القضاء عليه غير ممكن. لأنه يتوجب أولا، التغلب على دمه الشخصي وعلى أصل يديه وجسده. داخل هذا الجسد نفسه. ثم حلُّ كل الروابط التي ربما عقدها جسده مع سكان البيت. ولم يكن ذلك ممكناً.

لأنك لو كنت قادرة على رؤية ذلك التعب الآن، لما انتظرت الأخ حتى يقول الكلمات التي نعرف جميعاً أنه لن يقولها. حتى وان رغب في ذلك؛ لأنه يدرك عدم قدرته، هذه المرة أيضاً، على قهر ما قُرر لهم، لا من قِبل الأب، ولا من قبلك انت، ولا من قِبله هو، بل من قِبل الدم الذي يجري في عروقهم والبيت الذي ينتمون إليه.

وأنت تعرفين ذلك، نحن كلنا نعرف ذلك. لكنك تريدين ان يكون الأخ هو من يتحمل ثقل الكلمات التي ستقال، تريدين ان يكون هو، إذ لم تعد لك عينان لتري تعبه.

كان ينبغي أن يكبروا ويقتلعوا عينيك. وتوجب عليها بدورها، ان تجعل دمها يسيل طوعاً على فخذيها وان يمتلئ البيت برائحة التمزيق. كان ينبغي تحطيم ما اعتقدت أنك أعدت بناءه من أجل

Twitter: @ketab_n

خلود الدم والاسم، ولم يتم ذلك في سلام بل ضمن الغضب وهيجان الدم والاسم. توجب إغلاق جسدك وتهدئة جلدك حتى لا يحولك أي شيء عن مهمة تربيتهم. وتوجب عليك أن تكوّني في داخلك بمشقة، تعلقاً بحضورهم، بأصواتهم بمواقفهم، حتى تشعري أنهم ملكك وتتمكني من تحمل التطور الطويل لطفولتهم المتوانية. ثم السيطرة على قلق أمراضهم حتى لا يمنعك الذي ربما صار حباً، من ان تكوني متشددة من أجل مصلحتهم. توجب تصليب النعومة الطبيعية في ذراعيك من أجل عدم وقف عويلهم الحاد المنعزل في ليالي استغاثتهم. توجب تأجيج حقدهم عليك كي يصيروا أقوياء، متحدين، مرتبطين بك، انطلاقاً من ذلك الحقد الصّحي الملائم نفسه. توجب عليك أن تكوني أقوى من عزلتك لتمنعي حيويتهم الثلاثية من ان تخرجك من تلك العزلة.

كما لو ان كل ذلك التفاني العنيد لأعضائك، وأحشائك وحواسك، كان ذا هدف وحيد، تربيتهم وجعلهم قادرين على تمديد دم الأب واسم الأب، كما لو ان كل ذلك لم يكفِ، كما لو ان دمجهم في هذا البيت لم يشكل عناء مضنياً. يتوجب عليك الآن ان تتقبلي ما في بطنها. عليك أن تتقبليه لأنك إذا رفضت فإن التضحية به سوف تكون مجدية لأمر ما، لأن حقدهم يكون، بذلك، قد تغلب عليك في النهاية. بروز قوامها سوف يكون ثمناً زهيداً جداًبالقياس إلى تحررهم. لقد قلت لها ذلك، سوف يولد هنا ويُربّى في هذا البيت عليأانه جزء من هذا البيت إلى أن يولد

Twitter: @ketab_n

لأحدكم من بوسعه ان يكون قادراً على أخذ مكان الأب. أنت أقوى منهم حتى من دون عينين، أقوى من القرية، تماماً مثل الأب الميت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأب

الأب جالس على مقعد خشن مصنوع من خشب وجلد مشدود، جلد خام. عمر الأب ستون عاماً، وهو قوي وقاس. عندما يقف الأب سوف يبدوا قصيراً، ويبدوا ظهره عريضاً، ورقبته غليظة، وصدره قوياً وقوامه ضامراً وساقاه مقوستين قليلاً لأنه عاش على حصان قسماً كبيراً من أعوامه الستين. وعندما يتكلم الأب سوف يكون صوته خشناً، سلطوياً، مجبولاً من الأوامر التي يعطيها دائماً. لا مجال للحنان عند الأب. وبالمقابل لا وجود للرعونة، هو قاسي القلب لكنه لا يضمر الحقد أو المرارة، وله بالطبع خشونة خشب الغياك أو عود الأنبياء.

يدا الأب نحيلتان، دقيقتان ربما، لكن ملمسهُما ينبغي أن يكون مؤلماً، وشاحناً بالخِدر.

الغرفة التي يشغلها الأب نظيفة؛ الأرض مطلية بالإسمنت؛ الجدران مدهونة بالكِلس ولا وجود لأية روزنامة. في إحدى الزوايا، قرب إحدى النوافذ، توجد مائدة حديدية للتزيّن، عليها طشته، وابريقه المصنوع من الصفيح. السرير يوجد قبالة النافذة

Twitter: @ketab_n

الثانية إلى جانب الباب الوحيد الذي يفتح على الباحة، لا على الشارع، رغم ان الغرفة تصادف زاوية البيت. السرير من خشب، عريض، صلب. والحصير السميك المفروش مباشرة على خشب الأرضية، مغطى بملاءة نظيفة جداً. على الفراش لا توجد أية وسادة. لا أحد يعيش في هذه الغرفة، إنها غرفة غير مأهولة ومع ذلك يتم الاعتناء بها فيُنفض غبارها وتنظّف كل يوم.

تدفع الأبنة أحد مصراعي الباب فينفتح المصراعان كما لو كانا مغلقين بالضغط، تدخل، تطبقهما بعناية وتغلقهما بيديها الاثنتين، تمسك بالرتاج وتضعه في طرفي المزلاج، موصِدة الباب، تذهب الأبنة نحو الأب الذي لم ينظر إليها بعد، تقرفص أمامه وتشرع في فتح أزرار واقيتي الساقين اللتين تلوحان، فيما بعد، مكومتين إلى جانبي المقعد مثل لفتين كبيرتين داكنتين.

كل حركات الفتاة آلية، كأنها حركات تعلمتها غيباً منذ وقت طويل ومارستها مراراً.

بدأت الفتاة تحل سيور جزمتيه دون أن ترفع عينيها.

الأب: أين كنت؟

الابنة: في الدكان.

الأب: ماذا ذهبت تفعلين هناك؟

الابنة: اشتري بعض الأشياء.

الأب: لماذا لم تذهب أمك؟

Twitter: @ketab_n

الابنة: إنها في الجدول. لم نكن نعرف أنك ستاتي اليوم، لم تعد تأتي منذ عدة أيام.

الأب: لقد منعتك من مغادرة البيت.

الابنة: أنا لا أخرج. لكني لم أفكر بأنك قد تأتي اليوم.

تُدخل الإبنة الجوربين داخل الجزمتين وتضعهما بعناية إلى جانب إحدى الواقيتين، تقف من جديد وتمكث أمام الأب، بين رجلي الأب الحافيتين، في انتظار الحركة التالية المعروفة. يفتح الأب حَلَقة الحزام الرقيق الذي يشدُّ جعبة الرصاص والمسدس، قليلاً تحت الحزام العريض المزين بصفين من القرنفل عند الحلقة ذات الحدّين والذي يشد بنطاله، ويناولها إياه. تُدخل الإبنة طرف الحزام مجدداً في الحلقة وتُدخل السنّ في ثقب جعبة الرصاص، ثم تذهب لتعليق الحزام في أحد المسمارين الكبيرين المثبتين في آخر عارضة للباب.

الابنة: ظننت أنك لن تأتي اليوم، بما أننا ارسلنا إليك إخطاراً.

الأب: وهذا هو سبب مجيئي. الإخطار.

الابنة: الإخطار كان لكي لا تجيء.

الأب: نعم.

استدارت الإبنة وبدأت تنظر إلى الأب للمرة الأولى، مواجهةً، ورأسها مرفوع. يتقدم الأب، الذي كان قد وقف، يتقدم نحو السرير وهو يخلع قميصه الكاكي من الكتان الخشن.

Twitter: @ketab_n

الابنة: لم أشتر شيئاً.

انتهى الأب من خلع قميصه وتقدمت الإبنة نحوه لتتناول القميص وتستدير ثم تقوم بعدة خطوات نحو الباب مجدداً لتعلقه عليه آلياً، وبعناية. ما زالت تولي ظهرها ناحية الأب الذي بدأ يخلع الفانيلة البيضاء ذات الكمين الطويلين والقبة المستديرة.

تكرر الابنة: لم أشتر شيئاً.

الأب: ماذا ذهبت تفعلين إذن.

الابنة: لأستمع.

تناولت الإبنة الفانيلة ووضعتها في نفس المكان بعد أن أدخلت إحدى يديها في أحد الكُمّين، ثم نفس اليد في الكُم الآخر، وعلقتها بنفس العناية إلى جانب المسدس والقميص.

الأب: تسمعين ماذا؟

الابنة: ما يقال.

الأب: لن يقولوا شيئاً. إنهم خائفون. إنهم جبناء. وسوف يظلون جبناء طيلة حياتهم.

الأب في الفراش يستلقي على ظهره، قرب الجدار، ولا يحرك رأسه، ينظر سادراً إلى تشابك الخيزران وأغصان الأسل التي تسند سقف القش. يدا الأب ترتاحان على صدره الواسع وأصابعه تتحرك، مُداعبةً جلده ببطء.

Twitter: @ketab_n

الابنة: ليسوا خائفين.

الأب: بلى، هم خائفون. سوف يخافون دائماً.

الإبنة جالسة على طرف السرير وبطرف إحدى فردتي حذائها تخلع الفردة الثانية، ثم تخلع الفردة الأولى بأصابع قدمها الحافية وذلك بقلعها من الكعب.

الابنة: ربما، هم خائفون، ولكنهم في هذه المرة سوف يفعلون شيئاً ما.

الأب: لن يفعلوا شيئاً، لن يجرؤوا، إنهم جبناء.

الابنة: ربما، هم جبناء، لكنهم سيفعلون شيئاً ما، إنهم مصممون على فعل شيء ما.

الأب: لماذا أنت متأكدة من الأمر، إلى هذه الدرجة؟

الابنة: لأني أعلم.

الأب: قالوا لك شيئاً؟

الابنة: كلا. لي؟ لا يقولون شيئاً.

الأب: لماذا؟

الابنة: لأني لست منهم. ثم ان القضية ليست قضية نساء.

الأب: أنت مع من؟

الابنة: أنا لك. لقد اشتريتني.

خلعت الإبنة فستانها وتركته يسقط متكوماً قرب حذائها، عندما

Twitter: @ketab_n

تتمدد بجانب الأب، مولية ظهرها له، ناظرة إلى الباب المغلق، يغطي قميصها الداخلي من نسيج «البركال» فخذيها فقط، وتحاول الإبنة سحبه إلى تحت بإحدى يديها بينما يرتاح رأسها على يدها الأخرى. حركات الإبنة الآن معرقلة بحياء رهيب. تضم ربلتي ساقيها بقوة وتطويهما على فخذيها وتنطوي خجلاً وليس خشية.

الابنة: جوزيفا هي التي قالت لي ذلك.

الأب: ماذا قالت لك.

الابنة: بأنهم سوف يقتلونك.

الأب دون أن ينقلب، يرفع إحدى ذراعيه ويضع يده على كتف الإبنة. تتمدد الإبنة، ترخي ساقيها وتريح ظهرها على الفراش، مستندة إلى الأب تقريباً، وفي نفس طول الأب.

يسحب الأب يده التي يثقل عليها ظهر الإبنة ويضعها على صدرها. وتغمض عينيها.

الأب: من؟

الابنة: كلهم. القرية.

الأب: متى؟

الابنة: عندما تعود هنا.

الأب: لماذا لم يقتلوني عندما وصلت؟

الابنة: ربما ينتظرون قدوم الليل.

Twitter: @ketab_n

الأب: إنهم يخافون. يخافونني. لن يتجرأوا.

الابنة: يخافونك لكنهم الآن يحقدون عليك أكثر.

الأب: لقد حقدوا علي دائماً.

الابنة: هم يحقدون دائماً على من لديهم مال.

الأب: كلا، السبب ليس المال. إنهم يكرهون دائماً من لهم قيمة أفضل منهم أنا لي قيمة أفضل منهم.

الابنة: ليس بسبب المال، لا يكرهونك بسبب المال، بل بسبب الإضراب.

الأب: الإضراب؟

الابنة: قُتل منهم الكثير في المحطة. أطلق الجنود الرصاص من العربات. لم ينزلوا. توقف القطار وأطلق الجنود الرصاص على الذين كانوا في المحطة، ثم انطلق القطار. لم ينزل الجنود لكنهم قتلوا منهم عدداً كبيراً جداً.

الأب: لقد أحسنوا صنعاً.

الابنة: لم أر ذلك. أنا لا أذهب البتّة حتى المحطة، لكن جوزيفا حكت لي.

الأب: نعم.

الابنة: لهذا أرسلت من يخبرك كي لا تأتي.

الأب: من قال لجوزيفا أنهم سيقتلونني؟

Twitter: @ketab_n

الابنة: كلهم. القرية. كلهم يقولون بأنهم سوف يقتلونك.

الأب: ولكن من منهم؟

الابنة: كلهم: القرية كلها.

الأب: نفس المسؤولين عن الإضراب.

الابنة: كلا، فالذين ينظّمون أمور المزارع قُتلوا في المحطة. لم يتبقَّ منهم أحد.

الأب: حسناً فعلوا.

الابنة: إنها القرية. الآن كلهم.

الأب: كلا، وحدهم لن يفعلوا شيئاً.

الابنة: بلى، سوف ينتظرون هبوط الليل.

يستدير جهتها ويغطيها بذراعيه ويضغط بجزء من صدره على صدرها.

الأب: نحن الإثنين، لن ننتظر قدوم الليل.

تشمّر بيديها الاثنتين، الجزء الأيسر من قميص نومها كاشفة عن ساقها حتى الخصر، ومن دون أن تنظر، تشرع بأصابع ماهرة ودقيقة، في حل تكّة سروالها الداخلي المنسوج من البركال الوردي أيضاً.

Twitter: @ketab_n

(١)

ـ لقد وصل لتوه، الحصان في الباحة.

ـ كيف نعرف ان كان هو؟

ـ هذا حصانه.

ـ هل أنت متيقن من ذلك؟

ـ من الذي لا يعرف حصانه؟

ـ وهو، هل رأيته؟

ـ كلا، لم أره، ولكن هذا حصانه وعليه سرجه والرّكاب مع علامته.

ـ لا أحد غيره يركب هذا الحصان.

ـ لا أحد غيره.

ـ وخصوصاً العدة كلها

ـ نعم. أذن هو بالتأكيد.

ـ ولكن هناك من أخبره. لم أكن أعتقد أنه سوف يأتي.

ـ نعم، لقد أُخطر بعدم المجيء.

Twitter: @ketab_n

ـ هي أيضاً لم تكن تنتظره. كانت خارجة من الدكان عندما رأت الحصان في الباحة.

ـ إنه هو بالتأكيد.

ـ هو، قلت لك، هو.

ـ نعم

ـ لم أكن أتصور أنه سيجرؤ على المجيء.

ـ أنك لا تعرفه.

ـ والآن، ما العمل؟

ـ الآن، ينبغي علينا قتله.

ـ جاء بمفرده.

ـ نعم، يبدو أنه جاء وحده.

ـ من الأفضل التأكد من ذلك.

ـ ربما جاء مع مرافقيه.

ـ مع مرافقين من العمال؟ حتى عمال لا غابرييلا ذهبوا.

ـ كلا، من الجنود.

ـ حقاً. قد يكون الجنود في انتظاره عند السدّ.

ـ لا شك أنهم ينتظرون حتى ينذرهم.

ـ نعم، ينتظرون أن يخبرهم كي يدخلوا القرية.

Twitter: @ketab_n

ـ ينبغي التأكد من ذلك، لأنه إذا جاء مع جنود، فمن الأفضل عدم القيام بأي شيء.

ـ في كل الأحوال سوف نفعل ذلك.

ـ مع الجنود، لا نستطيع.

ـ بلى، نستطيع.

ـ لقد جاء وحده.

ـ اذن ينبغي النزول حتى السدّ للتأكد إذا كان الجنود هناك.

ـ هذا أفضل ما يجب فعله.

ـ وإذا كانوا في الجهة الثانية من السكة؟

ـ كلا، ليسوا هناك. أمضينا الصباح في مراقبة جهة الجسر.

ـ لقد جاء مع مرافقين، لا شك أنهم عند السدّ

ـ اذهبوا إلى السد للتأكد؛ ونحن سوف ننتظر هنا.

ـ حسناً.

ـ لا تدعوا أحداً يراكم.

ـ حسناً.

ـ وإذا كان يوجد جنود؟

ـ لا أهمية لذلك؛ ففي كلّ الأحوال سوف نفعل.

ـ إذن، لماذا ترسل أشخاصاً للتأكد؟

ـ للاطلاع.

Twitter: @ketab_n

ـ هل سننتظر عودتهم؟

ـ نعم.

ـ ينبغي التنبه.

ـ الجميع يعلمون، حصانه في الباحة منذ وقت طويل.

ـ الكل رأوه.

ـ نعم، لكنه جاء مع الجنود، ولن يرغب الناس في القيام بذلك.

ـ نحن الذين سوف نفعل.

ـ للجنود بنادق «ماوزر»، ونحن لا نملك شيئاً. لقد صادروا سواطيرنا أيضاً.

ـ لدينا المعاول.

ـ المعاول؟

ـ نعم، المعاول.

Twitter: @ketab_n

(٢)

ـ سيقتلونه؛ إذا بقي، سيقتلونه.

ـ ماذا جاء يفعل؟

ـ هي التي أرسلت من يناديه.

ـ كلا، يقال أنها أخبرته الا يجيئ، وأخطرته بأنه سيُقتل.

ـ هذا ما يقال، ولكنه ليس صحيحاً، لم تتمكن من الانتظار فأرسلت تطلبه.

ـ إذا قُتل، فإن ذلك بسبب غلطته.

ـ ليس ذلك كافياً كي تجعله يأتي، لا أعتقد أنه كان سيأتي لمجرد أنها دعته.

ـ لم تقدر على الانتظار كل هذا الوقت. إها شيطانة.

ـ إنه يذهب لرؤية النساء دائماً عندما يريد، لا عندما يُردن.

ـ إنها شيطانة.

ـ هي مثلنا كلنا.

ـ ليست مثلنا. لقد أرسلت تناديه وهي تعرف أنهم سيقتلونه.

Twitter: @ketab_n

ـ إنها تعلم، تعلم أنه إذا جاء سوف يُقتل؛ القرية كلها تعرف ذلك. منذ مجزرة المحطة والناس ينتظرونه. وعلى كل امرأة ان تدافع عن رجلها.

ـ ليس ملكاً لأية امرأة، لم يكن البتة ملكاً لأية واحدة، وهو لا يكنّ لها أي اعتبار مثلما لا يكن لكِ.

ـ أنا، لقد عاملني دائماً معاملة حسنة. لم أكن اترك له مبرراً، أو حافزاً.

ـ ما من واحدة تركت له حافزاً، ليس بوسع أي واحدة ان تجرؤ على إعطائه أي حافز.

ـ انه ليس سيئاً؛ ليس سيئاً بالدرجة التي يدَّعونها.

ـ ليس سيئاً. هو السيد؛ سيد كلّ شيء ويستطيع الحصول على كلّ ما يرغب فيه.

ـ أنت، لم يتمكن من الحصول عليك.

ـ وهل هذا ما يقال عني؟

ـ نعم، يقال أنه كان يحترمك دائماً.

ـ ذلك لأنه لم يرغب في الحصول عليّ.

Twitter: @ketab_n

(٣)

ـ الآن، علينا ان نقتله.

ـ لماذا عاد؟ كأنه لم يعلم.

ـ لقد جاء ليجبرنا على قتله. لقد أجبرنا دائماً على كل شيء. الآن، يأتي ليجبرنا على قتله، يأتي ليتحدّى الخوف.

ـ كلا، لقد جاء لأنه لم يصدق ما أُخبر به. ولكن، عندما تقول له بأن ذلك صحيح، وبأننا سنقتله، عندما يقتنع بأنها أرسلت من يخبره لأن الأمر صحيحاً، وليس لسبب آخر، ولا يتعلق الأمر ببعض أكاذيبها، حينئذ سوف يرحل.

ـ لن يرحل.

ـ سوف يرحل ولن نتمكن من فعل أي شيء ضده. هذه المرة لن نتمكن من فعل أي شيء ضده.

ـ لن يرحل لأنه يعلم أننا نخافه.

ـ نعم، نحن نخافه.

ـ ولهذا السبب سنقتله، لأننا نخافه.

Twitter: @ketab_n

ـ كلا، ليس لهذا السبب، بل بسبب كل ما فعله لنا؛ بسبب كل ما فعله لك أنت، وكل ما سوف يفعله لي أنا، إذا ظل على قيد الحياة. لأنه أرسل جنوداً لقتلنا يتوجب علينا قتله.

ـ كلا، سبب ذلك هو الخوف. كذلك لأنه أفضل منا وهو يدرك ذلك.

ـ ربما هو أفضل من كلّ واحد منا على حدة، لكنه ليس أكثر قيمة منا جميعاً.

ـ هو أكثر قيمة منا جميعاً. وهذا ما يجبرنا على الاتحاد لقتله.

ـ إذا لم ينصرف الآن، بعد أن تحدث معها، فذلك لأنه لا يصدق أنّ لنا من الشجاعة ما يجعلنا نواجهه؛ لأنه لا يعتقد أننا قادرون على قتله.

Twitter: @ketab_n

(٤)

ـ لا نعرف بعد إذا كنّا قادرين على ذلك أم لا.

ـ لا وجود لجنود عند السد.

ـ ما من أثر لجندي واحد.

ـ وهل نظرتم جيداً؟

ـ نعم.

ـ ما من أثر.

ـ هذا أفضل.

ـ اذن، لقد جاء وحده.

ـ نعم، جاء وحده.

ـ اذن، لم يكن ذلك صحيحاً؛ لم ترسل من ينذره.

ـ كلا لم يكن ذلك صحيحاً؛ إنها مثلنا.

ـ كنت تقولين شيئاً آخر!

ـ نعم، لكن ذلك لم يكن صحيحاً.

ـ وهل يعرف الجَميع أنه لا وجود لجنود؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، لدى عودتنا أخبرناهم.

ـ ينبغي الذهاب للبحث عن بعضهم في الأدغال.

ـ لماذا؟

ـ بعد المجزرة التحق الكثيرون بالأدغال ولم يعودوا.

ـ لأنهم يعتقدون أن الجنود سيعودون.

ـ لقد انتهى الاضراب، ولا يحتاجون للعودة.

ـ من يدري.

ـ نستطيع الذهاب للبحث عنهم.

ـ وهل أخبرتم الكثير؟

ـ نعم، الكثير.

ـ إذن، لماذا البحث عن الآخرين؟

ـ لدينا متسع من الوقت.

ـ متسع من الوقت؟

ـ نعم.

ـ سوف نذهب إذا شئت.

ـ حسناً، اذهبوا.

ـ الحصان مازال في الباحة.

ـ ماذا ننتظر الآن؟

ـ ننتظر قدوم الليل.

Twitter: @ketab_n

(٥)

ـ أتدري، سيقتلونه اليوم.

ـ من؟

ـ رجل ريجينا.

ـ العجوز الذي يأتي دائماً على الحصان الجميل؟

ـ نعم سيَد لاغابرييلا.

ـ في كل المنطقة لا يوجد حصان مثل ذاك.

ـ ولا أي حصان يشبهه

ـ لا شك ان هناك غيره في لاغابرييلا.

ـ ينبغي أن نذهب هناك، ذات يوم.

ـ المسافة طويلة جداً. ولا أعتقد أنه يوجد حصان آخر مثل ذاك.

ـ هل تذكر تلك الخيول التي جيء بها في تلك المرة أثناء العيد؟

ـ نعم، لكني أفضِّل حصان العجوز.

ـ الحصان المبّقع الذي كان يركبه ذلك الرجل الطويل الشعر مثل امرأة، كان حصاناً رائعاً.

Twitter: @ketab_n

ـ أنا لا أحب الخيول المبقّعة، أفضل الخيول ذات اللون الواحد.

ـ هذه السّنة لم يكن ثمة عيد.

ـ ماذا حدث؟ هناك عيد كل سنة، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حصان العجوز يوجد في الباحة، عند ريجينا.

ـ من قال ذلك؟

ـ هذا ما يقال.

ـ هلا ذهبنا لرؤيته؟

ـ سيخيم الليل فوراً وفي الظلمة سِحر وأذى.

ـ عندما يقتلونه، من سيأخذ الحصان؟

ـ لست أدري. هذه الليلة سيكون الظلام شديداً لأنه لا يوجد قمر. إذا سمعت «اليورونا» أخبرني غداً صباحاً، وإذا سمعتها أنا سوف أخبرك.

ـ حسنا.

ـ هل سبق لك سماعها؟

ـ أنا؟ أبداً. أظن ان الحصان سوف يهرب.

ـ إنه في مكان مسوّر.

ـ إذا قتلوا العجوز، سوف يهرب الحصان، أعرف أنه سوف يهرب.

Twitter: @ketab_n

ـ لنبحث عن حجر مسطّح ونلعب لعبة المربعات.

ـ حسناً.

ـ أو نذهب لنأتي بطيارة الورق؟

ـ كلا، الوقت متأخر. أنه الليل تقريباً.

Twitter: @ketab_n

(٦)

ـ الليل يخيمّ والحصان ما زال هناك في الباحة: ماذا ينتظر، لماذا يظل هناك؟

ـ إنه ينتظرنا.

ـ نحن؟

ـ نعم القرية كلها.

ـ ونحن ماذا ننتظر؟ لماذا لا يبدأون كلهم بالخروج من بيوتهم؟

ـ ينتظرون الليل الدامس.

ـ وما الفائدة من انتظار الليل الدامس؟ نحن متفقون جميعاً على فعل ذلك.

ـ لكننا لا نعرف ماذا سنفعل.

ـ نحن بحاجة إلى أن يصبر الليل دامساً حتى لا يرونا. أليس كذلك؟

ـ ليس ذلك لكي لا يرونا، بل لكي لا نري بعضنا البعض.

Twitter: @ketab_n

(٧)

ـ هل عادوا كلهم؟

ـ نعم، كلهم ينتظرون، وكلّ واحد في بيته.

ـ لقد اخبرناهم بأن الجنود لم يعودوا وأنه وحده في البيت.

ـ عندئذ عادوا كلهم فوراً.

ـ اثناء مرورنا رأينا الحصان.

ـ ما يزال هناك.

ـ وهل سيبقى الليل كله؟

ـ هو لا ينام هناك ابداً، لم يفعل ذلك قط.

ـ الظلام شديد، الآن.

ـ هل نذهب؟

ـ نذهب.

Twitter: @ketab_n

(٨)

ـ إنهم يخرجون من بيوتهم والحصان ما يزال دائماً هناك.

ـ سيقتلونه.

ـ سيقتلونه بسبب غلطة تلك الشيطانة.

ـ كلا. ليست غلطة أحد. ولا غلطته هو.

ـ لو أرادتْ، لو أنها اخبرته، لتمكن من الرحيل.

ـ إنه يعلم بذلك. وهو دائماً على علم بذلك. لم يرد الرحيل.

ـ سوف ينتظرهم ولن يجرؤوا على أي شيء ضده.

ـ من يدري...

ـ لن يجرؤوا. لا أحد تجرأ من قبل.

ـ الآن، الجميع، القرية.

ـ نعم. كلهم في زمرة واحدة.

ـ ليتهم لا يقتلونه.

ـ ليتهم، ليتهم لا يقتلونه.

Twitter: @ketab_n

(٩)

ـ لنعد إلى البيت، الليل مظلم.

ـ لا.

ـ الليل مظلم؛ ماذا عسانا نلعب؟

ـ لا شيء.

ـ إذن لنعد إلى البيت.

ـ أنا، لن أعود ولن ألعب؛ سأبقى هنا، سأقضي الليلة كلها هنا لأنهم إذا قتلوه سوف يهرب الحصان، لن يتمكنوا من الإمساك بالحصان؛ وهذا الحصان لن يستولي عليه أحد. سوف يهرب ويمرّ من هنا مسرعاً، وأنا، سوف أراه. سوف تكون آخر مرة ولا أريد أن تفوتني.

سَمعِت الإبنة الوقع المكتوم والمستدير لحوافر الحصان في الباحة؛ ثم في جمهرة صامتة وموكب منتظم، صدمة سياج الخيزران والخطوات على الأرض المطروقة، على النباتات الكثيفة، حول البيت، حول الغرفة، حول الحصان الذي كان يضرب عصبياً بحوافرِه فيجعل سرجه وعدّته تطقطق، سمعت الإبنة

Twitter: @ketab_n

الأب وهو يرتدي ثيابه بسرعة ولكن بهدوء أعصاب؛ سمعت الصوت المعدني من أسنان حزامي الأب وهي تدخل في الثقوب المعدنية ويتلاشى الصوت عند انطباق الجلد على الجلد؛ سمعت جزمتي الأب على أرض الغرفة؛ سمعت رتاج الباب ينزلق ثم المحور يَصّر.

عندئذ دلف إلى فتحة الباب، بلا صدى كل ضجيج الموت والتدافع والهرج، سمعت الإبنة الرجال المندفعين والتلاحم؛ سمعت التطويق اللاهث؛ سمعت ضربات المعاول المضطربة على الجسد الذي بدأ يرتخي أمام هجوم أخرق لكنه شرس. سمعت الإبنة السقوط الخافت للجسد، ثم السقوط الخافت للمعاول، التي انتهت جدواها، في الأب الميت. لم تسمع الإبنة أية كلمة. لا شيء غير صهيل الحصان الهائج وعدوه المضطرب مخترقا القرية مثل جرح طويل لا ينتهي.

Twitter: @ketab_n

القرية

تمتد القرية قاسية، شديدة الحرارة. تبدأ البيوت الأولي من الجهة الثانية للسكة، فوق الرمال الدقيقة الناعمة المغطاة بزغب ملْحي شفاف. بيوت خشبية ذات سقوف صدئة وثقوب يتسرب منها المطر، وخيوط الضوء في الليالي المقمرة، ورغم ان هذه البيوت ملأى بالنساء فليس لها أية بهجة؛ فهؤلاء النساء يرقصن طوال الليل، فلا يجِدن وقتا لتزيين بيوتهن أو زرع بعض النباتات. وبما أنهن لا يمكثن طويلاً في القرية، بشكل عام، فإن هذه البيوت تبدو غير مسكونة. تصل النساء ذات مساء مع حقيبة صغيرة وكيس ورق؛ فيعلقن صوراً، ويشعلن شمعة ويجلسن منتظرات. وذات مساء يجمعن أشياءهنّ التي تبعثرت، شيئاً فشيئاً في الغرفة، ويشترين كيساً جديداً ويرحلن: أكثر تعباً، لكنهن لا يدركن ذلك.

هنا تبدأ القرية، وتنتهي الرمال الناعمة وهنا توجد المحطّة التي يتوقف أمامها القطار المحمّل بأقراط الموز وبالعمال المياومين. يقفز العمال من فوق العربات المسطّحة ومن على سقوف العربات المغطاة ويواصل القطار طريقه نحو الميناء.

Twitter: @ketab_n

بيوت العمال في هذا الجانب من السكّة من خشب، بدورِها، وذات سقوف من صفيح مثقوب لكن هذه البيوت مطلية بالأزرق والوردي والأبيض. وفي زاوية بارزة من الجزء الرئيسي يوجد الفونوغراف في قاعة واسعة، مغطى بقطعة من قماش الكريتون المطرّز، وقد وضع على أربع قطع زجاجية، وهو الفونوغراف الذي يُشغَّل كل أسبوع مساء السبت ويوم الأحد. وصل الرجال الذين يعملون كامل الأسبوع في المزارع ويأتون إلى القرية ليسكروا ويعطوا قسماً من مرتباتهم لنسائهم وللنساء الأخريات، جاؤوا في جماعات صغيرة، أو فرادى، أو مع عائلاتهم. يأتي بعضهم برفقه كلب وامرأة مبتذلة، بيضاء وصامتة. ويأتي آخرون وليس معهم سوى بطانية خشنة ملفوفة ومطوية تحت الإبط وساطور. كلهم ملتزمون بالصمت والعناد؛ بالصمت ومقاومة كحول ماء الحياة.

بعضهم لا يظل سوى بضعة أشهر. يعملون يقبضون مستحقاتهم ويأتون إلى القرية، فيجلسون في باحات بيوتهم وينظرون إلى مرتفعات السييرّا. وذات يوم يرتحلون حتى من دون رؤية البحر. ويذهب بعضهم مع عائلاتهم للإقامة على حدود المزارع ويُكوّنون قرى أخرى، شيئاً فشيئاً، على طول سكة الحديد، بمحاذاة السيول التي تندفع باردة من السييرا، عند المرتفعات.

وبقدر الابتعاد عن المحطة باتجاه مركز القرية، نحو الساعة الواسعة والكنيسة، تصير البيوت والشوارع أكثر هيبة، وتتجمد

Twitter: @ketab_n

الحياة وتنطفئ. وحول الكنيسة يعيش أصحاب المزارع، ثلاث عائلات تزاوجت فيما بينها وزوجت أبناءها وأبناء أبنائها. ومع كلّ ميت، يظهر كُزْةٌ جديد وتتجزأ مزارع الموز الكبيرة تدريجياً وتصير البنايات الضخمة ذات الأسوار السميكة أكثر انغلاقاً وعزلة. وكأنّ هذه البيوت التي تحيط بالكنيسة وبساحة القرية كانت قديمة دائماً، فمن الخارج يقوضّها الملح ببطء ولكن بمثابرة، غير أنها من الداخل، وبسبب ملل النساء اللواتي يشعرن بأن الزمن يمر على أجسادهن المهجورة ونظراً لتصلب كرامة الرجال إذا حدث ان زاروا بروكسل، كل ذلك يغذي القوة التي تجعل هذه البيوت خالدة.

تنتهي القرية أمام البحر؛ بحر مضطرب وقذر لا ينظر إليه أحد. رغم ان القرية تنتهي أمام البحر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المرسوم

ماجدلينا ١٨ ديسمبر ١٩٢٨

مرسوم رقم ٤

ينص على كون متمردي منطقة مزارع الموز يعتبرون زمرة إجرامية.

إن الحاكم المدني والعسكري لإقليم سانتا مارتا، بموجب السلطات المخّولة له و

حيث أنّ:

من المعروف ان المضربين المتمرّدين يقترفون كلّ أنواع الشرور، وقد احرقوا عدة بنايات تعود إلى مواطنين وأجانب، ولجأوا إلى النهب، وقطعوا خطوطاً تلغرافية وتلفونية، وخربوا سككاً حديدية، واعتدوا بالسلاح على مواطنين آمنين، وقاموا بعدة اغتيالات، وبالنظر إلى كون سلوكهم ينم عن عقلية خطرة، متطابقة تماماً مع المذاهب الشيوعية الفوضوية، المبثوثة سواء شفهياً في خطبهم ومحاضراتهم وأحاديثهم، أو كتابياً في الصحيفة «جورنال دي كوردوبا» وفي مناشير سرية، بواسطة قادة هذه الحركة التي

Twitter: @ketab_n

اعتبُرت في البداية مجرّد عملية اضراب عمال مسالمين، وحيث ان من واجب السلطات الشرعية توفير الضمانات للمواطنين كما للمقيمين الأجانب، وإعادة استتباب الأمن باتخاذ كلّ الإجراءات التي تستدعيها حقوق الناس والاحكام العرفية.

يقرر

ـ البند الأول: يعتبر كلّ المتمردين ومشعلي الحرائق والقتلة الذين يتكاثرون الآن في منطقة مزارع الموز زمرة إجرامية.

ـ البند الثاني: ينبغي مطاردة القادة والمحرّضين والمتواطئين ومن يُؤويهم، واعتقالهم كي يتحملوا مسؤولية أعمالهم.

ـ البند الثالث: يسمح لرجال الأمن العام ان يعاقبوا بالسلاح كلّ شخص يضبط متلبساً بإشعال حرائق أو بالنهب المسلح؛ وباختصار فإنهم مكلفون بتطبيق هذا المرسوم.

القائد المدني والعسكري

لإقليم سانتا مارتا

كارلوس كورتيس فارغاس

(جنرال)

الكومندان انريك غارسيا ايسازا

(سكريبر)

Twitter: @ketab_n

الخميس

عادت المرأة إلى فتح عينيها. لم تكن نائمة، كانت قد أسدلت جفنيها ومكثت بلا حراك، مركزة اهتمامها على الطريقة التي كانت بقع العرق تجف بها في ظهرها وبطنها. بدأ ضوء معتم يتسلل عبر ثقوب السقف المستديرة وامتلأت الغرفة بظلّ خفيف متراخ وبارد. لقد أمطرت الليلة، فكرت. نظرت إلى بركة الماء الصغيرة التي تشكلت تحت الباب وإلى إطار الشباك الذي كان رطباً فقط، وإلى بقع الجدران التي بدأت تنضج لأن الميازيب لم تعمل. لكن المطر لم ينزل بكثرة، فكّرت، كان هناك رذاذ طوال الليل، فقط. أغمضت عينيها من جديد وتحركت فوق السرير. أفردت ساقيها وفرّجت ما بينهما. أبعدت بينهما أكثر، حركت ذراعيها، تركت يديها تنزلقان على أجزاء الجلد الجاف، التي صارت ذات حبوب بفعل الغبار والملح. كان كلّ مكان من جسدها رطباً. استدارت على السرير، فوق ملاءة الكتان الخشنة، عارية، حركت ساقيها، ضربت بتراخ على الملاءة المتكومة حيث علِقت قدماها. مرّت بذراعها على وجهها وأحست بشفتيها جافتين مغطاتين بقشرة نافرة، عذبة. قشرتها بأسنانها. أعادت فتح عينيها، رفعت رأسها وبصقت عدة

Twitter: @ketab_n

مرات على الأرض. لا شك أنه مازال يوجد ماء في الإبريق، فكّرت، كم أنا عطشى. انزلقت نحو طرف السرير وأخذت تؤرجح ساقيها باحثة عن خّفيها بباطن قدميها. اهتز هيكل السرير، السرير العالي الهشّ، وأخذ يصرّ؛ بينما ظَلّ غطاء القماش مشدوداً، وصقيلاً لحظةً. نظرت إلى العمود المواجه والمسمار الوحيد، مثل بتيلة غليظة صدئة. نظرت إلى الحبل الذي يخترق الغرفة من جدار إلى آخر، الفستان الأخضر، اللامع، وقطعتي قماش بيضاوين نظيفتين تبدوان على شكل لسانينْ، وكلها مطوية ومفككة. نظرت إلى الجدار في آخر الحبل، والمسامير الأربعة الملفوفة بالورق، مثل أصابع قصيرة مبرومة ومغلفة. المنديل، فكرت، أين وضعت المنديل؟ مشت نحو الزاوية حيث توجد المائدة القصيرة مع إبريق الماء الطيني الموجود في الطشت المملوء، والمجبول من الطين بدوره. وإلى جانب المائدة كان هناك المنديل مكوّما على الأرض، منديل كبير، عتيق ذو أطراف مُخففة، وسخة. قرفصتْ، تناولت المنديل، ضمته إلى صدرها وبطنها وفخذيها: تجسّه جساً. نفضت المنديل وتغطت به بعد أن عقدته تحت أحد إبطيها. تناولت كأس الصفيح الربعّية التي كانت معلقة في مسمار وغطستها في فتحة إبريق الماء. حكّت الربعّية قعر الابريق عدة مرات، أخرجتها نصف ممتلئة وشربت جرعة. التفتت وبصقت عبر كتفها. ألقت بالماء المتبقي في الربعية على الجدار؛ ثم أعادتها إلى محلها. إنه مذاق

Twitter: @ketab_n

آجر، فكّرتْ. يالقذارة هذا الماء، عادتْ إلى السرير مغطاة بالمنديل ونامت على بطنها فوق الغطاء.

أغمضت عينيها وفكرت: هذا المساء، هذا المساء سوف أرحل، هذا المساء سوف أرحل. ونامت.

دخل الطفل راكضاً ومرّ تحت الباب الصفّاق ثم توقف، كالتائه، أمام مشرب البار. نظر إلى الطاولات الأربع الخالية. كانت جالسة إلى الطاولة الأخيرة مولية ظهرها إلى المدخل. تقدم الطفل إلى طاولتها حاسباً خطاه ومركزاً اهتمامه على طرفيْ حذائه الأبيض.

وضع الرجل يده على رأس الطفل وداعب شعره. حرك الطفل رأسه وابتسم جذَبتْه الأم اليها بعنف تقريباً، وقالت له:

ـ ماذا تريد؟

تكلم الرجل دون أن ينظر إلى الأم، ضارباً الطاولة بالكأس القصيرة.

ـ ألا تريدين ان ألمسه؟

ـ آسفة، ليس ذلك. إنما لا أريد أن أنساه مجدداً، ليس لي غيره.

ـ أحب مداعبته. لقد أحببت ذلك دائماً.

ـ أعرف.

ـ اقترب الطفل من أمه أكثر، مبتعداً عن ملامسة الرجل. وضعت الأم يدها على جبينه.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت ساخن. لا تعدْ إلى الشمس.

شرع الطفل يلعب بأزرار بدلة أمه. وكما لو أنه تذكر، فجأة، أمراً ما، قال:

ـ هل سمعت صوت الجرس الصغير؟

ـ كلا. أي جرس؟

ـ قلت لي بأن اخبرك إذا سمعت صوت الجرس الصغير. أنت قلت لي ذلك. تناول الرجل ورقة نقدية من الرزمة التي كانت على الطاولة، قرب كأسه الفارغة، وتكلم دون أن ينظر إلى الأم، متوجهاً إلى الطفل وحده.

ـ جرس العربة، عربة بائع المثلجات.

انتزعت الأم الورقة النقدية من الطفل. نظر الرّجل إلى الأم، بلا غضب. بل باندهاش. وتكلم بنبرة قاسية كما لو كان يعطي أمراً.

ـ اتركيها له، دعيه يشتر قليلاً من المثلجات.

لف الطفل حول الطاولة وهو يمشي على كعبي حذائه، جاعلاً أصابعه تنزلق على حافتها الدائرية. قام باستدارة كاملة ومدّ أصابعه نحو القطع النقدية التي كانت بجانب الكأس.

ـ أفضل قطعة نقدية.

ـ حسناً.

دفع الرجل بالقطع النقدية ناحية الطفل. توقفت الأم عن البحث

Twitter: @ketab_n

في محفظة نقودها ونظرت إلى الرجل متضايقة. استدار الرجل ناحية المشرب وأظهر كأسه إلى صاحب الخمّارة، رافعاً إياها.

توقف الطفل مرة أخري أمام المشرب كي يرى صاحب الخمارة يفتح زجاجة أخرى ويصُبّ المشروب في كأس نظيفة. ثم خرج راكضاً، صافقاً الباب الذي ظل يتأرجح لفترة.

قالت المرأة:

ـ لا تكرر ذلك، أرجوك. لماذا لا تريد ان تفهم؟

ـ ماذا أفهم؟ سوف ينساني بسهولة، مثلك أنت.

ـ لا أريد منك ان نفعل ذلك. هذا كل ما في الأمر: لا أريد أن تفعل ذلك.

ـ لا تخافي: سوف يكون ذلك سهلاً بالنسبة لك.

ـ لست خائفة، ولن يكون ذلك سهلاً. كم مرة سنظل نناقش الموضوع؟ لم أعد أريد مناقشته. لن اتحمل أي نقاش جديد.

ـ أنا لا أناقش. ماذا قال لك الطبيب؟

أغلقت المرأة محفظة نقودها ووضعتها على الطاولة. جاء صاحب الخمّارة بكأس ملأى وتناول الكأس الأخرى.

كرر الرجل:

ـ هل زرتِ الطبيب؟

ـ لم يكن موجوداً.

Twitter: @ketab_n

وأضافت موضّحة

ـ لقد سجنوه.

ومن أجل تهدئة الرجل الذي أفرغ كأسه ووضعها على الطاولة بحركة عنيفة:

ـ لم يعد لذلك أهمية.

خفض الرجل رأسه قليلاً وبدأ يحرك قعر الكأس المبلول على خشب الطاولة العاري. ومن دون أن ينظر إلى المرأة قال:

ـ لا يمكنك الذهاب اليوم، لن يكون هناك قطار.

دخل الطفل وهو يمشي ببطء شديد، كان يمسك زورقاً صغيراً مملوءاً بالمثلجات بيديه الاثنتين. مرّ أمام المشرب وأظهر مثلجاته لصاحب الحانة، اقترب من الطاولة مبتسماً لأمه وللرجل. ثم جلس وظهره إلى المشرب، وشرع يأكل مثلجاته بِنَهم.

ـ سيحسمون هذه القضية بالرصاص. لقد انتهى الأمر

ـ لا أعتقد أنهم سوف يجرؤون.

ـ سيجرؤون. لقد قرروا الحسم مهما كان الثمن.

ـ سوف يسجنون أشخاصاً آخرين، لكنهم على ما أعتقد لن يطلقوا الرصاص.

ـ سوف يطلقون: أعرفهم. وليست هذه أول مرّة أتورّط فيها في مثل هذه القضية، عندي تجربة.

Twitter: @ketab_n

ـ نعم أعرف ان لك تجربة، لكن ذلك سيجعل العدد كبيراً. الكثير من الرجال والكثير من القرى.

ـ ولهذا السبب طلب الجنرال تعزيز القوات؛ لأنهم لا يستطيعون المخاطرة بالحامية الموجودة هنا فقط، ضد العمال. صدّقيني، إني أؤكد لك ذلك، سوف ينهون الأمر بالبنادق.

ـ إذا كنْت متأكداً من الأمر إلى هذا الحدّ، علينا ان نفعل شيئاً لمنع حدوث ذلك.

ـ أنا، لا أستطيع فعل أي شيء. سأرحل هذا المساء.

ـ سترحل؟

ـ نعم.

ـ لا يمكنك الذهاب. لا يمكنك الذهاب والوضع على هذه الخطورة.

ـ لقد أنهيت عملي.

ـ لا يمكنك الرحيل.

ـ لقد انتهيت. والبقية هي قضيّة الأخرين.

ـ ليس للأخرين أهمية، الآن، علينا حماية الشعب. الآخرون قدموا أموالاً لأنهم يريدون التخلص من مخازن الشركة. وأنت تعرف ذلك جيداً.

ـ نعم، لكنها ليسْت قضيّتي.

Twitter: @ketab_n

ـ بل هي قضيتنا. لقد أقحمنا الشعب في هذه القصة. أما الآخرون فقد كانوا يريدون التخلص من مزاحمة مخازن الشركة فقط.

ـ في كلّ الأحوال، سيربح الشعب من ذلك شيئاً ما.

ـ يربح من ذلك؟ ماذا؟ قتلى؟

ـ لقد أمروني بالمجيء لتنظيم إضراب، وليس لحماية الناس. والأمر كما أقول لك: هنا سيلعلع الرصاص، وأنا، سوف أرحل هذا المساء.

Twitter: @ketab_n

الجمعة

استيقظت المرأة. فتحت عينيها وسمعت وقع الخطى المنتظمة، المنطرقة؛ بل أكثر من الوقع: ضجة رتيبة. فكرت المرأة: ماذا عساه يكون؟ تفحصت عتمة الغرفة ثم ثقوب السقف وشقوق الجدار من حيث يفترض تسرّب النور لم يطلع النهار بعد، فكّرتْ. تابع الصخب والضجة والايقاع ملء الغرفة، يطوقها ويغطيها. أرادت المرأة سماع صوت المطر فوق صفائح الحديد. رفعت رأسها ثم تركته يسقط وقفزت إلى السرير، فوق غطائها الكتاني العاري. ومن دون أن تتحرك، نظرت من جديد إلى السقف وبدأت تميز الثقوب والدعائم والألواح. لم تسمع المطر. لقد صفا الطقس، فكرت؛ وبعد ذلك: الطقس بارد. أدارت جسدها قليلاً نحو اليسار، وبيدها اليمنى، جذبت رويداً رويداً، المنديل الملتف تحت ظهرها، ومؤخرتها وساقيها. فَرَدَت المنديل على صدرها، على بطنها، وعلى ساقيها. رفعته قليلاً بيديها الاثنتين واستدارت تماماً على جانبها الأيسر؛ طوت ساقيها، شبكت ذراعيها ومكثت بلا حراك: جسدها كله متكوّر في المنديل. ماذا عساه يكون؟ فكرت. استدارت المرأة مرة أخرى مستلقية على ظهرها مجدداً، حصرت

Twitter: @ketab_n

المنديل مثبتةً إياه بين ذقنها وصدرها وسحبته على طول جسدها؛ طرف المنديل يغطي ركبتيها بالضبط. فرجت المرأة ما بين ساقيها وأدخلت طرف المنديل؛ ضمت ساقيها وحصرت جزءاً مكوراً من المنديل بين فخذيها. الجنود، فكرت، فجأة. نهضت فوراً ومشت نحو النافذة عاقدة المنديل تحت أحد إبطيها؛ ضغطت على المصراعين لإخراج المزلاج، فتحت ورأت صف الرجال الذين كانوا يمشون في الجانب الآخر من السكة، نحو المحطة. أغلقت النافذة وعادت قرب السرير، قرفصت وتناولت الخفّ، جلست على السرير، وارتدت الخُفّ وظلت لا تتحرك، وذراعاها مستندتان إلى حافة السرير، لا تحرك سوى ساقيها مثل ساعة دقاقة. انتهى وقع الخطى والصخب والضجة. الضوء يعُم الغرفة كلها تقريباً، لكنه ضوء متراخ بلا بريق. تركت جسدها يسقط إلى الوراء، بعكس امتداد السرير، وكتفاها إلى الطرف الآخر، ورأسها شبه معّلق في الهواء، ملامساً الجدار. الجنود، فكرت أيضاً، الجنود. نهضت المرأة جديًا هذه المرة وبدأت ترتدي ثيابها.

كان الرجلان والحصانان يتقدمان بإصرار في الطين الطريّ. كانا يمشيان ببطء صامتين، مثبتين كل خطوة لتلافي الانزلاق. كان أحدهما، وهو الأصغر سناً، يسوق الحصانين ضاغطاً بإحدى يديه على حزمة اللجامين. كان الحصانان يتبعانه بانقياد ومن دون أي جهد تقريباً، ومن دون مقاومة الخضّات الخاطفة والقصيرة التي كان يلجأ إليها الشاب ليقودهما.

Twitter: @ketab_n

عندما وصلا إلى السكة الحديدية، توقفا. رفع الحصانان رأسيهما وهزّا الشكيمتين بحركات مضطربة، عصبية. استدار الشاب وربَت على عنقي الحصانين المبتلّين بالرذاذ. هدأ الحصانان وكأنما ينتظران أمراً جديداً. حكّ الرجلان الوحل الذي علق بنعليهما على حافة السكة، ثم اعتلياها وسارا على عوارضها بخطى غير منتظمة. خفض الحصانان رأسيهما كأنهما يتشمّمان السكة، لكن الشاب مدّ ذراعه التي تمسك باللجامين وجعل الحصانين يسيران إلى جانب السكة. سارا مسافة معينة دون كلام. ثم قال الشاب: جئت أبحث عنك لأنهم أرسلوني. (لم يلتفت إليه الآخر) إنهم ينتظرونك. وصل زورقان مسطحان مملوءان بالجنود. توقف الآخر (حاول الحصانان التقدم أكثر لكن الشاب فصل بين اللّجامين وجعل أحد الحصانين يمر من الجانب الثاني للسكة بحركة جذب غير متوقعة) وسأل: «متى وصلوا» «منذ وقت قصير، وهم ينزلون الآن من الزورقين» تناول الرجل الآخر لجام أحد الحصانين، وأنزل الرّكاب الذي كان متشابكَ الجانبين فوق السّرج ثم امتطى صهوة الحصان بحركة سريعة ودقيقة. حاول ان يدير الحصان نحو اليمين، لكن الشاب كان قد أمسك بمكبح اللجام ومنعة بشدة. أخذ الحصان يحرك رأسه متضايقاً، ويضرب الوحل بحدواته الأربع، قال الشاب: «لم يعد الوقت كافياً الآن إنهم ينتظرونك» ثم ترك اللجام. نظر إليه الرجل الثاني بغضب. لحظة، في حين كان يحاول السيطرة على مطيته، ثم صاح: «دع عنك ذلك» لكن الشاب، كان قد توجه نحو

Twitter: @ketab_n

حصانه واعتلى السرج منتظراً عبور الآخر لعوارض السكة كي يتبعه. وقبل أن يشرع في خبّبٍ قصير وحَذر فوق مستنقع الوحل، قال «أعرف أين كنت توجد. الوقت غير كاف لذلك أيضاً؛ عندما نخلص من هذه القضية، سوف يكون لنا وقت». «حسناً، متى شئت» قال الآخر، وأخذ الحصانان يسيران خبباً.

فجأة ثقبت عتمة الغرفة دائرة محمرة أحاطت بوجه الرجل وصدره، وبظهر المرأة وجزء من الجدار مع جانب من روزنامة قذرة. تركز الضوء المفاجئ في مستوى فم الرجل وتم ابتلاعه بنهم، ثم ملأ الدخان اللّبني الثقب المستدير الذي فتحته الشعلة وعاد الليل يملأ الغرفة كلها. عندئذ سمعت المرأة الإشارة: صفير خافت ومتقطع، مثل نقيق الضفادع، تكرر بطريقة مُلِحّة. ارتدى الرجل بنطاله وعبر الغرفة باتجاه الباب. أما المرأة التي كانت قد استيقظت تماماً، فقد جلست على السرير، ماسكة بالملاءة على ثدييها، وظهرها العاري يغطي قسماً من الروزنامة. رفع الرجل العارضة فأحدث مِحوَرَا الباب صريراً صدئاً؛ أخرج رأسه وكتفيه؛ عندئذ سمعت المرأة جلبة الخيول، لكنها لم تسمع المحادثة. أعاد الرجل إغلاق الباب دون إعادة العارضة إلى موضعها. ترك قطعة خشب الغاياك في زاويتها ومشي نحو الصندوق، مرخياً بنطاله كي يبدأ بارتدائه. سألت المرأة: «ماذا يحدث؟» «لا شيء، لا شيء» أجاب الرجل. سألت المرأة مرة أخرى: «لقد وصلوا، أليس صحيحاً؟» أكمل الرجل تزرير قميصه وتشبيك بنطاله. انحنى باحثاً

Twitter: @ketab_n

عن جزمته تحت السرير. جلس وبدأ ينتعلهما. «ماذا ستفعل؟» سألته المرأة أيضاً. انتهى الرجل بأن قال: «لست أدري» ووقف. قذفت المرأة كلماتها مثل أغنية محفوظة غيباً لكثرة تكرارها: «عليك ألا تتدخل في ذلك، علاقتك بسكة الحديد، لا بالمزارع، فلماذا تتدخل في ذلك» فتح الرجل الباب وقبل أن يخرج، قال «أعيدي العارضة إلى محلّها» تركت المرأة جسدها يسقط إلى الوراء، فوق السرير، زلقت الملاءة وظل ثدياها الكبيران المنتفخان عاريين. حاولت المرأة سحب الملاءة إلى أعلى، لكن الملاءة لم تُغط سوى منتصف بطنها الكبير المنتفخ مثل مَعِي أعور على وشك الانفجار. جسّت المرأة بطنها بيديها المبسوطتين وظلت بلا حراك منتظرة امتلاء عينيها بالدموع ويديها بضربات قدمين صغيرتين.

قال أحد الرجال: «لقد تأخر، نعم (ثم:) لماذا رجع، ماذا ذهب يفعل؟ لقد أخبر بشيء ما، يتعلق بأخته» وقف الرجل، وظل الآخرون مقرفصين، جالسين وركبهم مضمومة إلى صدورهم، مستندين إلى الألواح، متمددين على ورق الموز، وكل واحد ساطوره إلى جانبه كأنه مرساة، يراقبون النقطة الداكنة الرّطبة التي يبدأ منها الدرب. مشي الرجل إلى منتصف السقيفة وتوقف حيث ينتهي السطح، نظر إلى الفراغ وكأنه يبحث عن فرجة في الليل الحالك، الكثيف، الذي كان يغطّي كل شيء. حوّل نظره ناحية الرجال الذين محتهم الظلمة، ما عدا بضع رقع رمادية تشتعل خلف ألق متقطع ينبعث من سيجار، فيضيء جزءاً من وجه، ولمعان عين

Twitter: @ketab_n

ثابته، هادئة، بلا تعبير. تابع سبر أغوار الليل، محاولاً الرؤية أبعد من الحدّ النباتي الضيق الذي تحيط كثافته بمكانهم، وأخيراً ظل، مثل الآخرين، يركز نظره على بداية الدرب. مدّ الرجل ذراعه ووضع يده اليسرى تحت الرذاذ. تغطت يده تدريجياً بفقاقيع صغيرة ندية أخذت تتسرب إلى حزوز أصابعه وتسيل. مدّ ذراعه الأخرى وضمّ يديه تاركاً اياهما كذلك حتى اللحظة التي ابتل فيها أيضاً كُمّا قميصه.

عندئذ فرك الرجل وجهه ورقبته بيديه المبتلتين. ثم، وبعد فترة طويلة من انقطاع نزول الرذاذ برتابة، وإذ لم يعد يتلقى سوى القطرات الثقيلة التي ظلت متأرجحة على حافة تضاليع السطح، اجتاز الرجل السقيفة عائداً عبر أولئك الذين كانوا ينتظرون جالسين أو مستلقين أو مقرفصين، حتّى بلغ الخيول المربوطة. «سنذهب للبحث عنه» قال. امتطى خمسة رجال خيولهم أيضاً وتبعوه متوغلين في الدرب الضيف المنخفض، منحنين على أعناق احصنتهم.

غطس الرجل، الذي كان يغسل الكؤوس وراء المشرب، يده في الحوض وجسّ القاع بدقّة. أخرج منه كرة صابون، كرة مزرقّة اللون، ووضعها على لوح يستخدمه كرِفّ، بجانب المغسلة غطس يده ثانية وعصر الخرقة الطافية فوق الماء الداكن في الحوض، عدة مرات؛ وعندما تكورت الخرقة تقريباً وصارت شبة جافة، وضعها

Twitter: @ketab_n

بجانب الصابون. استدار ونشف يده بالمنديل المعلق على كتفه. نظر إلى القاعة الواسعة التي أمست الآن واسعة، لأنها خالية، وإلى فوضى الطاولات والكراسي التي تغطي الأرض الاسمنتية القذرة. في آخر القاعة، وقرب الفونوغراف، كان الرجل لا يزال هناك، جالساً، مولياً ظهره ناحية المشرب، ناظراً إلى الفتاة التي كانت تتكلم مسترخية على الطاولة. مشى حتى حافة المشرب، رفع اللوح ليخرج، لكن الفتاة وقفت واتجهت نحوه وفي يديها زجاجتان فارغتان. «يريد أخرى» قالت الفتاة. «سأغلق المحلّ إلى متى سيبقى؟ هل سيبقى هنا الليل كله مرةً أخرى؟» سأل الرجلُ «لماذا لا ترافقينه إلى غرفتك؟» «لا يريد ذلك، قالت الفتاة، مساء أمس لم يرد أيضاً». «واضح!» قال الرجل، نزع سدادة الزجاجة التي أنزلها من أحد الرفوف، مدّها للفتاة، خرج من وراء المشرب وبدأ يغلق الأبواب المشرفة على الساحة الصغيرة الموحلة، التي يُرى في آخرها مبنى المحطة مع اسمها المنقوش على خزف باللونين الأحمر والأزرق، المبنى الداكن، الصامت كأنه مهجور. أغلق بابين بفرقعة مزاليج عنيفة، ثم دعمهما بتكديس كَراس وطاولات وراء العارضتين المقوُاتين بصفائح من التوتياء. وكان قد جرّ مقعده وأسنده إلى إطار الباب الوحيد الذي ظل مفتوحاً، ليعيق المرور، ثم جلس، وكان منصرفاً إلى تقشير الوسخ الذي التصق طيلة النهار والمساء بخشب قبقابه المبتل، عندما سمع وقع حوافر الخيول وهي تجتاز الساحة باتجاه حانته الصغيرة. ولا شك ان الرجل قد

Twitter: @ketab_n

سمع أيضاً، لأنه، حالما توقفت الخيل محاذية الرصيف كان قد خرج، مُوقعاً الفتاة تقريباً لدى مروره. قال الخيّال الأول: «لقد وصلوا» ولم يتمكن صاحب الخمّارة من سماع الجواب، لأن الرجل قفز مرادفاً ذلك الذي تكلم، ولأن الخيل عادت إلى اختراق الساحة لتختفي وراء المحطة. قال صاحب الخمارة وهو يغلق الباب الأخير: «ينبغي الذهاب لجلب مزيد من الرمّ (عرق قصب السكر) للغد». التفتت الفتاة فجأة وقالت: «بقيت زجاجة فوق الطاولة» وانصرفت بدورها باتجاه المحطة.

استيقظت القرية ببطء. لقد فقدت تقريباً عادة الاستيقاظ دفعة واحدة بفعل صفير القطارات. بدأت القرية تفتح عيونها وتعوِّدها على بقايا ظلمة الفجر الخفيفة. في البدء كان هناك ذهولُ من الصمت، ثم تصوّر غامض بأن هذا الصباح أيضاً يتخلّص من رتابة أعوام عديدة، ليشكل جزءاً من رتابة جديدة لم تتمكن القرية بعد من التعود عليها، الأمر الذي يجعل كل يقظة محيرّة.

عند طلوع النهار وجدت القرية نفسها مبللة، مغطاة برذاذ في غير أوانه، رذاذ لاصق كان قد تساقط طوال الليل، وها هو ذا الآن يبعث رائحة الوحل العابقة ابتداء من أكوام الرمل، فيخرج تلك الرائحة من النسيان. نزل الماء على قرية جافة ومشققة فابتلعته عبر سطوحها المثقوبة وجدرانها ذات الألواح المفلّقة والإسمنت المثلوم.

Twitter: @ketab_n

استيقظت القرية كي تتفرغ إلى مشاغلها التي سوف تتأخر بدايتها، اليوم، كثيراً. لأن الخشب المبلول لا يشتعل ويضايق بدخانه بين آجر المداخن. خرجت القرية إلى الباحات، هنا. مع مذاق القهوة الترابي، الحامض، تنتهي فجأة عادات كل يوم. ظلت القرية في الباحات، معطَّلة، دون أن تفهم شيئاً بعد، لكنها وديعة، تنظر إلى «السييرا» التي بدأت ترتسم مع خيوط الفجر وتملأ كلّ الفراغ؛ القرية الراصدة؛ القرية المنتظرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

السبت

هذا الصباح، في الساعة الخامسة وعشر دقائق، وصلت إلى مركز قيادة قوات الجيش المتمركزة في ثكنة سيبيناغا، أخبار دقيقة حول الهجوم الذي تعدّه عصابة مسلحة ضد محطة سكة الحديد.

في الساعة الخامسة وخمس عشرة دقيقة دقّ ضابط الحراسة بوق التنبيه وتجمّع الفوج في الباحة الرئيسية من أجل سماع جدول الأعمال. في الخامسة والنصف أُخطرت قاعة الخدمة بفرار جندي فرقة تابع لقوات الدعم. وبوشر بالتحقيق.

في الخامسة وأربعين دقيقة، أمر ضابط الحراسة بإلغاء كلّ ترخيصات الخروج، بما في ذلك الخروج المتعلق بالتموين، وأرسل فصيل للبحث عن الحراس المكلفين بخدمات خارج الثكنة.

وفي نفس الوقت المذكور أعلاه، أُمر بتعزيز الحراسة القائمة بإثنين وعشرين جندياً يتولّون القيام بدورية في جوار الثكنة والكنيسة، ويتم تغييرهم كل أربع ساعات. وتم تدوين رقم هذا الأمر.

في السادسة تماماً، رفعت الحراسة العلَم وباشرت بتحيته.

Twitter: @ketab_n

في السادسة وخمسة عشرة دقيقة، عاد الجندي جوّال من دورية الحراسة، كان قد أُرسل إلى المحطة، ليخبر الحرّاس بأن مجموعة كبيرة من الأشرار المسلحين استولت على قطار وتتهيأ للذهاب إلى منطقة المزارع بهدف مهاجمة مواقع الحاميات التي تمركزت في القرى فأُرسل الجندي الجوّال، برفقه أحد جنود الحراسة، إلى مركز قيادة الكتيبة لتقديم تقريره.

في السادسة والنصف، أمر قائد الكتيبة بإرسال تعزيزات إلى المحطة، مع أوامر قطعّية بتصفية عصيان الأشرار. خروج مائتين وأربعة رجال.

هذا الصباح، في الساعة السادسة والنصف، وصلت إلى مركز قيادة القوات المتمركزة في سيبيناغا أخبار دقيقة حول الهجوم الذي تعدّه مجموعة من اللصوص المسلحين ضد محطة سيبيناغا. وُضعت القوات فوراً في حالة تأهب.

في الساعة السابعة وعشر دقائق، أَخْبَرَ جنديّ جوّال من دورية الحراسة، كان قد أُرسل إلى جوار المحطة، أَخْبَرَ الحراسة بأن مجموعة كبيرة من اللصوص المسلحين استولوا على قطار ويستعدون للذهاب إلى المنطقة لمهاجمة الحاميات التي عهد اليها بحماية مصالح الشركة والخواص. تحرك الجنود، بإمرة الضبّاط، نحو المحطة لإعادة النظام. ونظراً لاقتراب الهجوم، توجب على العسكريين إطلاق الرصاص على الأشرار.

Twitter: @ketab_n

هذا الصباح، بين الساعة التاسعة والنصف والساعة العاشرة، حاولت جماعة من الأشرار المسلحين مهاجمة شبابيك تذاكر إحدى محطات السكة الحديدية؛ في ضاحية غواكامايال. ووجدت القوات العسكرية نفسها أمام الضرورة القصوى لأطلاق النار على الأشرار. لم يحدّد بعد عدد القتلى. أما الجرحى، بصفتهم أسرى، فقد تم نقلهم إلى مستشفى الشركة. لا خسائر في صفوف القوات المسلحة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأخ

ماتت أختي هذا الصباح. كان يجب أن تموت. إنه لأمر قاس غير ان هذه هي الحقيقة: كان ينبغي أن تموت ليعمّ العائلة قليل من السلام. لم تكن المسألة سوى مسألة وقت؛ وكان الأمر يتعلق بانتظارهم كي يكبروا قليلاً وبرؤيتهم بطريقة كافية من أجل عدم نسيان تعابيرهم، وتعلم طريقة لتمييزهم عنها حتى تتمكن من الموت دون أن يموتوا هم أيضاً. لكن كان ينبغي الاستعجال أيضاً لتفادي تعوُّدهم المفرط عليها بحيث قد يصير من المستحيل عليها ان تموت فيما بعد.

ماتت وحدها منفصلة عن كل ما كان بوسعها ان تعتبره مبرراً لمتابعة العيش، والمحافظة، مطولاً على تحدّ لم يكن ليؤدي الا إلى التدمير؛ تحدّ لم تصغه ولم ترغب فيه؛ تحدّ فُرض عليها، خارج أية إمكانية أخرى؛ وتخلصت من مهمة التأكيد، بحضورها وبتنفسها، وبالتنفس الدائم والمؤكد لأطفالها الثلاثة، على عبثيّة التحدّي. منفصلة، استطاعت ان تموت وحدها.

لا شك أنها عرفت بأني كنت سأجيئ اليوم، لا شك أنها عرفت

Twitter: @ketab_n

ذلك بنفس اليقين الذي تملكه حول كلّ أفعالي، ذلك اليقين الذي لم يحتج أبداً للكلمات، ولا شك أنها قررت عندئذ: لقد آن الأوان، انتظرت طويلاً، لقد عاد، الآن أستطيع أيضاً أن أترك جسدي يموت.

عدتُ إلى جسدها وقد فارقته الحياة، وإلى أطفالها الثلاثة الأحياء. عدت إليها. عدت إليّ. أجد نفسي مجدّداً في البداية. إذن، كل الدم الجاف والمنسي على خدّ الأخت، كل الدم الجاف والمنسي على أرصفة محطات القرى وفوق الوحل الأجاج، كل الدم الجاف في شارع معتم ضيق تحت حوافر حصان، كل ذلك الدم، لماذا؟ هل ينبغي البدء من جديد؟

الانطلاق من الجرح الأول، من الندم الأول، من الطلقة الأولي، من الثأر الأول، للوصول، إلى حيرة أخرى، إلى جسد آخر، مات إرادياً بسلام. أنا متعب.

في ذلك العالم غير القابل للفهم، عالم الأقرباء، والوجوه الوقورة والكلمات القاسية والبكاء المستسلم، الذي كان يمثله البيت الكبير، كنت وأختي نمثل عالماً مستقلاً عالم دهشة وإعجاز، حيث كنا ندخل كل صباح بأسرار جديدة واكتشافات جديدة.

كانت أختي تستيقظ الأولى كل صباح. كانت ايزابيلا تجرّني نائماً تقريباً، وكأن أهدابي ملتصقة إلى شباك المغسلة الذي يفتح على الباحة المزروعة بأشجار الزعرور وعندما أرفع وجهي المطلي

Twitter: @ketab_n

بالصابون كي أتنفس قيلاً، ذلك أن ايزابيلا كانت تعمد بكل بساطة إلى اغراقي في الحوض الواسع الذي كنت استيقظ فيه تماماً مرتعباً من الفراشات البنفسجية العملاقة التي كانت تهدّد بتمزيقي والتهامي، تكون ايزابيلا هي أول من أرى. كنت أهرب من بين يدي ايزابيلا التي تلاحقني حتى الباحة الصغيرة بالقدح الفضي وفرشاة الأسنان، صارخة ومهدّدة بكل أنواع العقوبات، غير المتوقعة، ثم نركض نحو رواق الخيول لعدّها ومعرفة العدد الذي يوجد منها في ذلك الصباح. وقبل ان تمسك بي ايزابيلا تدس الفرشاة في فمي، تقول لي أختي بنفس الصوت القلق كل صباح: «لقد حلمتُ البارحة أيضاً. وأنت؟» فكنت أجيب مطأطئاً رأسي مغتاظاً: «كلا، لم أستطع» عندئذ تنظر إليّ أختي، حزينة تقريباً، وتقول: «غبيّ، غبيّ» ثم تذهب إلى قاعة الأكل، وتتركني وحدي، متضايقاً من حذائي الذي تلطخ بالوحل رغم أنني ارتديته لتوي، وما زلت مرتديا قميص «الدبلان» الفضفاض لأن ايزابيلا لم تكمل إلباسي.

ذات صباح اكتسحت البيت رائحة قوية حلوة. رائحة لاذعة لكنها لطيفة، ولا تنتمي إلى الروائح المعروفة في البيت؛ فاجأتني ومنعت نومي بعد أن أيقظتني الجلبة الآتية من عربات الحليب، قبل الفجر. وعندما دخلت ايزابيلا إلى غرفتي فوجئت برؤيتي جالساً على سريري، منتبهاً إلى تلك الرائحة، متشرباً حدتها بشراهة. «ماذا حصل لك؟ تبدو مَذهولاً» لم أجب: كانت الرائحة مُلكي، أنا

Twitter: @ketab_n

الذي شممتها الأول: ملكي وملك أختي. حاولت عبثاً معرفة مصدرها، لم أجرؤ على السؤال، شاعراً بالغيرة على اكتشافي. «ألبسيني بسرعة. أنا جائع» نظرتْ إليّ ايزابيلا غير مصدّقة، وقالت: «لا شك أنك مريض» «وأنتِ ساحرة، مجنونة».

عندما وصلت إلى قاعة الأكل، لم تكن ثمة رائحة. كانت أختي قد انتهت من تناول فطورها وظلت تنتظرني بفارغ الصبر «أنت تستيقظ. دائماً، متأخراً. إنهن سيذهبن للعب في المشغل، ستبدأ الأم بمناداتي وما زلنا لم نذهب إلى الرواق» «ليس أنا، بل ايزابيلا هي التي ضيعت الوقت: كنت مستيقظاً حينها. وتأهبت للقيام، ولكن ايزابيلا منعتني من ذلك» «وهل هذا هو الجوع الذي تحدثت عنه؟ اشرب حليبك» تناولت كأس الحليب الرائب بجرعة واحدة وخرجت وراء أختي التي كانت تتوجه إلى الرواق. قلت لها فجأة «عندي رائحة». «توقفت أختي ونظرت إلى دون أن تنبس بكلمة. ابتسمت، كنتُ مولعاً بمفاجأتها بالجديد، دائماً». «عندي رائحة لا تعرفينها، لنذهب إلى غرفتي لأريك إياها. لقد منعتني من النوم. وهي لا توجد في بقية البيت، لا توجد إلا في غرفتي» «رائحة ماذا؟» «لست أدري، لست أدري رائحة ماذا، لم أشمها سابقاً».

ومن دون كلام، اجتزت الباحة وسرت حتى غرفتي. كنت أعرف ان أختي تتبعني بصمت. وعندما بلغت الممشى، شممت الرائحة من جديد، الرائحة الحلوة، اللاذعة، العجيبة، «هل تشمينها؟»

Twitter: @ketab_n

سألتها دون أن أنظر اليها. رن صوتها وراء ظهري، قريباً جداً: «نعم» «ما هذه الرائحة؟» «لم أتمكن من معرفتها بعد، لكنها تروق لي» كانت الرائحة تملأ الغرفة، ممتزجة بالماء المختلط برغوة الصابون وبمنديل ماء الخزامى الذي تفرك به ايزابيلا وجهي كل صباح، مكثنا لحظة وسط الغرفة، مثل كلبي صيد، نعزل الرائحة، ثم نجمعها ونقارنها بروائح أخري معروفة، محاولين التذكر.

«سنذهب للبحث عنها»، قالت أختي فجأة. «إنها تأتي من هناك، من جهة الثكنة».

اجتزنا المكتب ـ مذعورين كعادتنا ـ برائحته المتعطّنة؛ ثم اجتزنا غرفة الخزائن، ولها رائحة أدراج، وخرجنا من الممر الضيق الذي يفصل البيت عن جدار الثكنة. وهنا غطتنا رائحتنا بنفحة مفرطة في الحلاوة، مفرطة في اللزوجة، مقززة.

تسلقنا الجدار الصغير المتكوِّن من كومة روافد وكنَّا نستخدمه للنظر إلى باحة الثكنة، فرأينا السقيفة التي تم فيها تكديس أكوام من الأوراق الكبيرة السمراء والمربوطة في حزمات، وأدركنا ان رائحتنا تأتي من هناك، وفي ذلك المساء قالت لي أختي، التي كانت آخر من قبّل أبي قبل جَعْلنا ننام، قالت لي بصوت خفيض جداًحتى لا يسمع أحد: «للأب رائحة مشابهة» فجأة تذكرت. ونظرت إلى أختي بغض، وأنا أبكي تقريباً.

وعندما جاءت ايزابيلا لتخلع ثيابي وركعت لتنزع جزمتي، قلت

Twitter: @ketab_n

لها ساخطاً، باكيا: «هذه الغرفة لها رائحة الأب، رائحة الأب» فقالت دون أن ترفع رأسها: «إنها رائحة التبغ. مدّ رجلك الأخرى».

أنظرُ إلى وحشة هذا البيت، الميت قبل أن يجتاحه الموت. أنظر إلى الجدران العارية المتصدعة، الأدوات المنزلية التي لا تكفي سوى حياة زاهدة وبلا مستقبل، الأثاث المتيبّس والأسرَّة الكالحة. كل شيء نظيف، وثمة نظام عدواني، مُرّ، يوزع أشياء هذا البيت الكئيبة. لقد ظل البيت متماسكاً بقوة البقاء، لا بقوة الديمومة، بحياة تدرك أنها ولّت، وبلغت نهايتها ولم تعد تنتظر سوى إشارة، في فَضْلةٍ من وقت مُنحَت بلا رغبة، لتهجع وتنتظر الموت. أنظر إلى مادة هذا البيت تنهار وتتفتت منقادة وراء ثقل أختي الميتة. أنظر إلى كل ذلك وأفكر في البيت الآخر، بيت أكبر، وأشد قفراً وموتاً، لكنه مبني على الكراهية، مدعوم بالبغضاء ومستمر بفضل كراهية أختي الأخرى التي لا تزال على قيد الحياة. وهُم؟ ما الفرق الذي يجدونه؟ هُمْ، الأطفال الثلاثة الباقون الذين لن يستطيعوا الاختيار بدورهم، مثلما لم تستطع أمهم الاختيار، مثلما لم أستطع أنا الاختيار.

أجد نفسي أمام هزيمة جديدة، هزيمة جسد أختي وحياتها. من الذي هزمها؟ يقيناً ليس الأب لأنه حتى قبل سقوطه تحت ضربات الحقد الهادئ المتكتّم، المسالم الذي راكمه حوله بتلك الحياة الخالية من الغفران والشفقة، كانت قد هزمته في نفس اللحظة التي

Twitter: @ketab_n

كان فيها الأب يشق وجهها بحد مهمازه، كلا ولم تهزمها، كلا الأخت البكر التي أحست بولادة كل طفل من الأطفال الثلاثة مثل موت متجدد بالرغم عنها، كم مرة ثم أخرى. لم يهزمها الاسم الجديد الذي كان يثقل عليها في نفس الوقت مع القرف من الملامسات المنتظمة ومشاركة رجل في فراشة ومائدته، رجل لم يكن حضوره إلى جانبها حقيقياً أبداً، بما فيه الكفاية أبداً، كي تشعر بملامسته لها، رجل لم يتمكن موته الذي سرعت فيه هي، وسرعت فيه خصوبة جسدها المستمرة، لم يتمكن من تغيير قدرها ولم يخلصها مما يمكن أن يكون عقابها: لأن الأب إذ قتل الرجل، الذي اختاره للانتقام قبل ثلاثة أعوام، ليطلق اسما مختلفاً على ما كان يظنه فضيحة ابنته، لم يقم إلا بإغلاق دائرة العقاب المرتقب: العقاب المضاعف، عقاب العطاء المكره والحرمان الفجائي، إذن، من الذي هزم أختي؟

أنا الآن أمامها، ميتة. جسدها الذي أتذكره شامخاً، ينبغي أن يكون الآن وديعاً تحت تلف هذا القميص النظيف الذي يغطيه، يداها مهشمتان، متيبستان بالماء وبالمشاغل التي لم تكونا مجبولتين من أجلها، شعرها ما زال أسود طويلاً، لكن ندبتها القرمزية شحبت الآن على وجنتها.

ألمس الآن الندبة، مثلما لمست الجرح الدامي في تلك الليلة، وأفكر: هنا بدأت الهزيمة، أنا الجاني؛ ليس الأب؛ بل أنا.

Twitter: @ketab_n

كنت دائماً أصل متأخراً إلى المائدة الصغيرة في قاعة الأكل. في الصباح كان ذلك لخطأ من ايزابيلا. لم نكن لنتفق أبداً حول طريقة ارتداء ثيابي. كانت تتبع قواعد غريبة في اختيار ثيابي حسب الطقس: الحرارة، الريح، المطر. أما أنا فكنت أرى ان لباسي ينبغي أن يكون متوقفاً على نوع الألعاب التي انوي ممارستها، خلال النهار. فإذا استيقظت ذات صباح ولدي رغبة في الذهاب إلى الأرض المسورة، وكان ذلك يحدث كل صباح دون تغيير، أطلب من ايزابيلا ان تلبسني جزمتي. كنت ألمح بسؤالي بنبرة محايدة أو بالأحرى لا مبالية: «ستلبسيني الجزمتين اليوم؟» ولم تكن ايزابيلا تجيب. كانت تفتح أدراجاً وتغلق أدراجا وترتب الأضرار الحاصلة من المعركة الأولى حول الحوض، وتجمع كل ما تبعثر على الأرضية وتعيد الأشياء إلى أماكنها، كما لو ان شيئاً لم يكن. وكنت أحدس بنواياها فأصيح بها تقريباً: «ايزابيلا، اليوم أضع جزمتي». وعندما تستدير ناحيتي، يكون الحذاء المقيت ذو اللونين الأحمر والأبيض في يدها، ذلك الحذاء الذي لا أستطيع الذهاب به إلى الأرض المسورة لأن الأب، عندما يراه ملطَّخا بالوحل ساعة الغداء، يعاقبني عقاباً قاسياً، فكنت أبدأ مقاومتي الصامتة ثانياً أصابعي بعناد، دون أن أتكلم، خوفاً من أن يطفح نحيب الغضب الذي كان يضغط على حلقي وعيني. كانت ايزابيلا تتسلى بمحاولة تقويم أصابعي وإدخالها في الحذاء، وبعد دقائق نقضيها في هذه

Twitter: @ketab_n

اللعبة، أنسى غيظي، ولأن ايزابيلا تعمد إلى دغدغة أخمص قدمي، كنا نشرع في الضحك وأتركها تلبسني الحذاء بلا اعتراض.

عندما أصل إلى قاعة الأكل لا أجد أحداً عند المائدة. كانت أختي تنتظرني جالسة على الكرسي العالي الذي كان يُستخدم لإطعامي وأنا صغير، وتظل تنظر إلي من هناك، وأنا اقضم بصمت، وعندما تعود ايزابيلا لتنظف الطاولة التي أكلنا عليها، تنزل أختي من الكرسي العالي وتذهب إلى الباحة الإسمنتية النظيفة حيث أشجار الزعرور العملاقة تكاد تغطي السماء. كنت أتبعها. فتقول لي أختي: «لقد أمطرت حوالي نهاية الليل، تعال نصطد الجداجد من البغونية. عندما تمطر تكون البغونية دائماً مغطاة بالجداجد، في الصباح». عندئذ تنظر إلى حذائي. «لا بأس. فلنذهب إلى المكتب وسوف أحكي لك الحلم الذي رأيته ليلة البارحة». كنت أبتهج، أبتهج بطريقة غريبة لعدم ارتداء الجزمتين.

أمام أختي الميتة، ليست لدي دموع، بل أسئلة فقط. لقد حُرمنا من الدموع منذ الطفولة. الحقد الذي لم نكن نفهمه، الحقد الذي تأسس عليه استمرار العائلة جفف عيوننا، وحرمنا من عزاء الدموع الكبير. والآن لم تتبق لي سوى الأسئلة، الأسئلة التي لم أتمكن من طرحها عندما كانت ضرورية، عندما كانت تنبثق معذبة، أمام كل فعل، أمام كل حدث، وأكثر تعذيباً وأكثر إلحاحاً بعد كل كارثة. الأسئلة التي لم يسعفني الوقت بطرحها لأن كل شيء انقض عليّ دفعة واحدة بقوة ريح

Twitter: @ketab_n

غير منتظرة، لا مفر منها، ريح تُميل مزارع الموز وتأتي على ما كان يقيناً وأملاً. في البداية، كان هناك الأب الذي دخل حياتي مثل قوة خبيثة قاسية محطِّما، فجأة، نسق المراهقة الهش، تلك التكملة الواعدة والمدهشة لطفولة بعيدة عن كل مفاجأة خارجية. الأب الذي كان يعتبر الأسئلة إهانة لقراراته السامية التي لا تناقش، كان قد أقر بمجرد وجوده، استحالة الأسئلة.

وبعد تلك العزلة المهلوسة طيلة أعوام المدرسة النائية التي لم تكن لتسمح بالأسئلة لأن الأجوبة كانت قد بدأت ترتسم بوضوح فادح، غير مقبولة بعد داخل النظام الغامض للمشاعر المختلطة. عندئذ كان يتوجب إنهاك الحواس ومراكمة الأحاسيس وتغطية جلدي بأيد لا أرغب فيها لقطع الطريق على الأسئلة التي كانت تحوم حولي مثل حيوانات شرسة جائعة. كانت تلك ليلة طويلة للحواس المخيفة. وما ذكراها سوى تراكم غامض لوجوه وكلمات وأحاسيس، بلا تفسير ولا نتائج.

وأخيراً، كل الأسئلة التي لم يكن بالإمكان طرحها عندما اجتُثَّت حياة العمال المياومين الضحلة البائسة، برصاص البنادق في المحطات، وعلى طول السكك الحديدية، وأمام أبواب بيوتهم المنفرجة، لأنهم تحديداً كانوا يحاولون ممارسة ما يؤمنون به، ما كنت أنا خصوصاً اعتبره حقهم في السؤال، والبحث عن أسباب عدم المساواة والظلم. الأسئلة التي توجب تأجيلها فيما بعد إذ لم تعد هناك حاجه إلى الإسراع في إعادة بناء وتضميد ما حاول جندي

Twitter: @ketab_n

دنيء ان يقضي عليه أو ينهكه. كل هذه الأسئلة تتزاحم الآن أمام موت أختي، أين أجد الأجوبة؟ هل تكون في داخلي؟ أم ان اجوبتها المؤلمة. النهائية، الشاملة هي جسد أختي الذي بلا روح؟

كنت أكره المطر. كنت أخشاه أكثر من أسوأ العقوبات، لأن المطر يقطعني عن كل الأشياء الممتعة التي كان يقدمها البيت الكبير لطفولتي، عالم متاهات الاروقة، والغرف والباحات والخلوات السحرية التي نستكشفها أنا وأختي بلهفة كل يوم. كانت تسبق المطر، دائماً، حرارة جهنمية لا تتمكن حتى أسوار البيت الكبير السميكة العالية من إيقافها. كانت تتسرب إلى الغرف وتجتاح كل شيء وتنصب ثقيلة على أشياء البيت وسكانه. فجأة، وبلا تمهيد، تصبح السماء رمادية وتتراكم السحب على قمم السييرا مغرقة إياها في هالة وسخة مرعبة؛ بينما ريح باردة ونافذة تتغلغل في أجسادنا حتى النخاع.

يدوي هزيم الرعد، بإصرار مصمٍّ للآذان، تحت الناقوس الرمادي الهائل الذي غطوا به باحات البيت الكبير. وأخيراً تسقط عبر الفرجات المضيئة التي فتحتها انفجارات الرعد، أولى القطرات الضخمة مثل قطرات رصاص، ترفع سحباً صغيرة من الغبار لدى سقوطها على الأرض، عندئذ يُسمع وسط جلبة المطر صوت ايزابيلا المهموم وهي تبحث عني في كل البيت صارخة: «هذه الريح القارسة ستؤذيك، لا تعرض نفسك للبلل، لا تذهب تحت المطر، سوف تمرض!» أما أنا فكنت أكرهها، في تلك اللحظات. وكنا نختبئ أنا وأختي متراصين وراء أحد أعمدة الرواق، أو تحت

Twitter: @ketab_n

إفريز نافذة مغلقة، أو في مخبأ عارض تحت أوراق شجيرة واطئة، في ساحة أشجار الزعرور، وعندما تجدنا ايزابيلا، يكون المطر قد بلل ثيابنا ويبدأ برد قارس ولذيذ بالتأثير في جلدنا المبلول.

وقرب نهاية الليل عندما يخنقني حصر الصدر المتزايد، الذي حاولت اخفاءه أثناء العشاء عن عيني أختي اليقظتين، يتوجب على مناداة ايزابيلا. وعندما تجلس بجانبي وتوبخني بصوت خافت وبحنان، وتدلك ظهري بيديها الكبيرتين المسكنتين، ننظر أنا وهي، إلى أنوار الصباح التي تبدأ بالتسرب من فرجات النافذة المغلقة، وكانت أختي تفتح قليلاً باب غرفتي بهدوء وتمكث هناك، تنظر إلي. وعندما كانت ايزابيلا تتركني وتذهب، لتخبرهم بأنها وجدتني مريضاً، تقترب أختي من فراشي، وتمس جبيني الساخن بيديها النديتين وتقول: «أنا أيضاً لم أستطع النوم هذه الليلة: كنت اختنق». ثم تنصرف، فأجد أيام الاعتزال والمرض التي تكون قد بدأت في تلك اللحظة، أخف وطأة.

أين يوجد مكاني، الآن؟ أي الأمكنة يعود إلي في فوضى حياتي الكبيرة هذه؟ لقد احتلت الأخت بجسدها المكان الوحيد الذي يعود إليّ، لقد كان موتاً واحداً لكلينا، لكنها احتكرته كله لها.

كانت البدلة جديدة، والحذاء جديداً، والقميصُ جديداً، وربطة العنق غير معهودة، أفرطت ايزابيلا في شدها لعدم خبرتها، حتى أنها كانت تجعل حركاتي خرقاء وصعبة في ثياب السفر الثقيلة، تلك التي كنت أرتديها ذلك الصباح.

Twitter: @ketab_n

مر عشرون يوماً على قول الأب وهو يجلس إلى الطاولة لتناول العشاء: «لقد تم ذلك: له الآن مكانه في المدرسة» ثم، ومن دون أن ينتظر الأم وهي تنهي قولها: «لكنه ما زال صغيراً جداً. لم يكد يبلغ الثانية عشرة». بل كما لو أنه لم يسمعها: «سوف يذهب في سفينة موسم الجني القادم. ينبغي إعداده». كررت الأم: «لم يبلغ سوى الثانية عشر من عمره» ولكنها قالت ذلك من دون قناعة أو قوة، ومن دون دموع تقريباً. نظرت إلى أختي. ولم تكن الدهشة هي التي تملأ عيني وحنجرتي. كنا نتوقع ذلك، وقد رأيناه يقترب، كنا نعرف. كنا نعرف ان الأب سوف ينطق بهذه الكلمات ذات يوم. كان في ذلك عارُ ان يكبر المرء فجأة.

في ذلك المساء، عندما دخلت ايزابيلا إلى غرفتي حاملة كأس الحليب الفاتر الذي عودتني على شربه قبل النوم، كنت قد خلعت ثيابي. وضعت ايزابيلا الكأس فوق مائدة الأدوية الصغيرة، غطتها بعناية بصحن صغير ونظرت إلى الأشياء التي بعثرتُها على أرض الغرفة، لكنها لم تجمعها. اقتربَت من السرير وجلست قربي قائلة: «ينبغي ان تكون راضياً، لن تلبس ثياباً تخيطها النساء، فالنساء لا يُجِدْن خياطة البناطيل الطويلة...» كانت تريد متابعة الكلام لكن، وبدل الكلمات، سالت من عينيها دموع كبيرة وغزيرة فكانت تحاول مسحها بظاهر يدها الناعم. مررت ذراعي حولها ودسست رأسي في ثيابها التي كانت لها رائحة الكاننغا وأخيراً تمكنت من البكاء بسلام حتى اللحظة التي نمت فيها مستنداً إلى قوام ايزابيلا.

Twitter: @ketab_n

تدافعت الأيام. كانت المفاجأة بالأشياء الجديدة في الصندوق الكبير الذي جاء به الأب من سانتا مارتا، والانطباع اللذيذ بأني مركز اهتمام البيت الكبير كله، يبعثان في نفسي نوعاً من الدوار ويقتلعانني من رتابة طفولة بدأت تبتعد بألم، لأنني عندما كنت أحزر في صمت ايزابيلا الطويل والمتكرر ألم الفراق وأبحث عن نظرة أختي المشجعة، كانت تخفض عينيها وتتظاهر بالشرود. كان ذلك يجعلني أغلي من الغضب فأنصرف إلى باحة الخيول بحذائي الجديد أو ثيابي الجديدة التي كانوا يجعلونني أقيسها في ذلك الوقت، ولا يهمني تلطيخ نفسي بالعشب الرطب المصفرّ الذي كانوا يكومونه داخل الأرض المسورة. وعندما تجدني أختي، تقترب مني وتحضن رأسي بيديها قائلة: «أبكي أكثر من ايزابيلا وأكثر منك».

صبيحة الرحيل، بعد أن قبَّلت العائلة كلها لأول مرة في حياتي توجب علي الذهاب إلى غرفة ايزابيلا لأنها حالما انتهت من إلباسي ثيابي، أغلقت على نفسها ورفضت الخروج. وعندما كنت عائداً إلى القاعة الكبيرة، وجدت أختي تنتظرني في مدخل قاعة الأكل: «عدْ بنفس العينين المتضورتين جوعاً، هذا كل ما أريده». كنتُ على وشك أن أسألها ماذا يعني ذلك، لكن صفير القطار المتلهف أوقف الكلمات ولم أسمع سوى صوت الأب القاسي الذي كان يناديني من الباب.

Twitter: @ketab_n

الأطفال

ـ الآن ستقول بأنها كانت تعرف أننا سوف نقتلع عينيها.

ـ كلا. يجب الا تبدأ!

ـ بلى سوف تبدأ ولن تتوقف عن ذلك قبل أن تتوصل إلى البكاء.

ـ ليس إلى البكاء. من السخرية ان لا يخرج من هذين الثقبين الكبيرين سوى قطرات الدموع الصغيرة: سوف تقول بأنها كانت تعرف أننا سوف نقتلع عينيها، لكنها لن تبكِ.

ـ لو أنها كانت قادرة على البكاء، لو أنها كانت قادرة على البكاء.

ـ اسكتوا.

ـ الآن، كل شيء يثير أعصابك.

ـ لم أعد اتحمل شيئاً

ـ لن تقولي ان لي علاقة بالأمر، لن تقولي إني ضعت بلا هدف وكنت طائشاً.

Twitter: @ketab_n

ـ دعها. قلنا لن نذكر الموضوع ثانية. قلنا انها قضية منتهية. تماماً. لقد رضينا، ثلاثتنا. لقد اتفقنا. لماذا تلح وتعود إلى الموضوع؟

ـ لست ألح، الأخت هي البادئة، أفضل عدم التلميح أصلا.

ـ هذا عبث. لقد قبلنا نحن الثلاثة ذلك، نحن متفقون.

ـ لقد قبلت، لكني لست موافقاً. هذا أمر مختلف.

ـ وعندما يصير مرئيا؟ ماذا ستفعل عندما يصير مرئيا؟

ـ أرى أنه مرئي، أرى أنه ظاهر منذ اليوم الأول وأجد طريقة الأخت في حمله كريهة، بغطرسة تقريباً.

ـ أنا أيضاً لو كنت مكانها لكان من شأني ان أكون متغطرسة، ارتدي قميص نوم أبيض فضفاضاً من قماش الدبلان، وأمشي، حافية، عبر القرية كلها، ويداي على بطني.

ـ أنت مجنونة.

ـ مجنونة؟ لا. فرحة. لأول مرة، فرحة.

ـ لا أذكر أننا كنا فرحين ذات يوم، والآن أعرف أننا لن نفرح ابداً.

ـ كلا، الآن سوف نفرح لأننا نعيش بسلام.

ـ السلام؟ أنظر إلى الأخت، هل تعتقد ان بإمكاننا معرفة السلام بينما كرة الدم الغريب ـ هذه القذرة ـ تخنقها من الداخل.

Twitter: @ketab_n

ـ اسكتوا. اسكتوا. الا يكفي هكذا؟ لقد اقتلعنا عينيها، متي يكون ذلك كافياً؟

ـ لن يكون كافياً أبداً. حتى الموت لن يكون كافيا. كما لم يكن بالنسبة للأب، كما لم يكن بالنسبة للأم.

ـ لكننا نختلف.

ـ عمن نختلف؟

ـ عن الأم.

ـ نحن مثل الأم بالضبط.

ـ كلا: نحن أقوى. نحن ثلاثة.

ـ كانت الأم قوية. لم تهزم. كل يوم في حياتها كان احتجاجاً وكل يوم في مماتها هو نصر. نحن المهزومون.

ـ كيف كانت الأم؟ هل تتذكرها جيداً. هل تتذكر الفترة التي كنا نعيش فيها في بيت صغير على الشاطئ؟ لا أكاد أذكر ذلك.

ـ كانت الأم حزينة.

ـ أتذكر شجرة المانجا التي كانت في وسط الباحة وطراوة الأرض حول الخزان، وأذكر طياراتك الورقية.

ـ كانت الأم تبكي في الليل.

ـ لم تكن لدي طيارات ورق عندما كنا نعيش مع الأم.

ـ لم تكن لديك طيارات ورق؟

Twitter: @ketab_n

ـ كلا لم تكن لدينا ألعاب.

ـ كانت الأم لا تفعل شيئاً سوى النظر إلينا. كانت تنظر إلينا ونحن نكبر وكانت تزداد حزناً كل عام.

ـ لا أذكر أعياد ميلاد في بيت الشاطئ، أعتقد أننا في ذلك الوقت لم نكن نكبر كل عام.

ـ الطائرات الورقية الأولى صنعوها لي هنا، في هذا البيت، جاء الأخ ذات يوم بكومة من الورق الملون وقصبة. علمني كيف أصنعها وبعد ذلك كنا نطيرها من السطح؛ لم يحتج إلى تعليمي كيف أطيرها، فعلت ذلك وحدي.

ـ وذات يوم ماتت.

ـ هل تعتقد ان الأم كانت تحبنا؟

ـ لست أدرى. لم يكن أمامها متسع من الوقت حتى تألفنا.

ـ أنت: لا شك أنها احبتك: كان أمامها متسع من الوقت لتحبك.

ـ لم تُخير الأم في إبداء محبتها.

ـ تمنيت لو ان بإمكاني تذكر الأم. تمنيت لو أمكن لي القول: كانت تشبهني أو كانت تشبهك، لكني لا أعرف كيف كان وجهها، أو حتى إذا ما كانت طويلة أم قصيرة مثلي. أتذكر سهولة بعض الأماكن في البيت، لكنني لا أستطيع تخيل الأم.

Twitter: @ketab_n

ـ ربما كان ذلك أفضل. أقل حزناً

ـ لماذا؟ بذلك تكون لي ذكرى سارة عن الأم.

ـ هذا البيت لم يكن ساراً أبداً.

ـ كان كذلك. ذات يوم. يوم صنع لك الأخ تلك الصفارة بقضيب دباء الهند ونفخت فيها حتى انتفخت شفتاك. كنا نتبعك سائرين خطوة خطوة في البيت كله. لا أنسى ذلك اليوم.

ـ لكن الصفارة ذوت وذبلت صباح الغد، بكيت لما رأيتها. كل شيء هكذا في هذا البيت.

ـ الآن سيتغير كل شيء، بالنسبة إلينا على الأقل.

ـ ما الذي سيتغير؟

ـ كل شيء. لم نعد ننتمي إلى الحقد، لم نعد محكومين بالكراهية، لم نعد استمراراً لهذا البيت. لقد حررتنا الأخت.

ـ الأخت قيدتنا إلى حقد آخر؛ حقد جديد لم نكن نعرفه، ولا نعرفه بعد، لكن علينا ان نخلقه في أنفسنا؛ حقدنا.

ـ لماذا تتهم الأخت؟ هل سنقضي بقية حياتنا في تبادل التهم. هل سنبعث فينا حيوات الناس، الذين أسسوا هذا البيت، هذه القرية، وهذا العرق، ثم تحطموا مثل هذه الجدران، لأنهم تعلقوا بالكُره والبغضاء؟ ترى، ماذا كانت جدوى كل ذلك؟ لماذا احتجاج الأم أذن؟ لماذا أمل الأخ أذن؟

Twitter: @ketab_n

ـ لست أتهم الأخت، لست أتهم أحداً، قلت أننا استبدلنا حقداً بحقد، وأننا لم نتحرر من البغضاء، وان هذا البيت، ونحن كلنا، إذ نحمل فينا دم هذا البيت، لن نتحرر أبداً من الكراهية.

ـ بلى، سوف نتحرر منها، لأن انتماءنا لهذا البيت يخف قليلاً قليلاً ولأن كل دم هو دم أبعد عن دم الأب.

ـ الأب لم يعد موجوداً؛ بل أننا لم نتعرف عليه.

ـ لكن دم الأب هو الذي أتى بنا إلى هذا البيت، هنا. أنه سبب ولادتنا.

ـ كان همها بقاء ذكراه. كانت تكره الأم لأنها كانت أول من انتصر على الحقد عندما تحدث الأب، لكنها ربتنا حتى نكون جزءاً من هذا البيت، من هذا الدم، من هذا الحقد.

ـ نعم، وإذا وقعنا بدورنا في دوامة الحقد، تكون هي قد ربحت.

ـ لقد وقعنا فيها، لقد دفعتنا إليها، دفعت بالأخت إلى الحقد.

ـ كلا، أنا لست أضمر ذرة حقد واحدة. ولا أشعر حتى بالقرف. بعض التعب فقط.

ـ لقد جيء بنا إلى هنا وربينا لهدف معين تم بلوغه؛ نحن الآن نشكل جزءاً من هذا البيت مثل الأخ الذي تمرد هو الآخر، وانهزم بدوره. لم يربح أحد، لقد هزمت هي أيضاً، ولكن ذلك تطلب منها هزيمتنا نحن أيضاً

Twitter: @ketab_n

ـ كلا: لقد ربحنا حرية الاختيار. فرضنا حريتنا في تقرير حياتنا: مثل الأخ تماماً.

ـ الأخ لم يقرر شيئاً، ولسنا أفضل حالاً، عندما عاد من بروكسل والتحق بالمضربين، فعل ذلك كرهاً للأب، وليس اقتناعاً.

ـ لا يهم السبب، لا يهم السبب، كما لا يهم أمر تشتيتهم برصاص البنادق.

ـ وعندما عاد بعد القمع وموت الأب وبعد كل الميتات، فعل ذلك حباً للأم؛ حباً لنا، لكنه جاء بنا إلى هنا، إلى هذا البيت، لأن الحقد كان يناديا.

ـ جاء بنا هنا ليبرهن أنه كان على صواب، ليبرهن بوجودنا في حد ذاته على أن الأم رغم كل شيء، قد انتصرت، وأنه انتصر، بدوره.

ـ الأخ استمر لكنه لم ينتصر، وإذا كان قد جاء بنا إلى هنا، فإنما لكي يواصل الصراع.

ـ الأخ يحبنا. كان الوحيد الذي رآنا نكبر بحب والفرح القليل الذي حصلنا عليه، هو الذي اعطانا إياه.

ـ وأنت أكثر منا. لقد خصك بوقته وحنانه. كنتما رفيقين.

ـ أول شيء محبب أتذكره. هو حضور الأخ، تلك الطريقة الخرقاء كي يكون حنوناً.

ـ نحن لا نعرف شيئاً عنه. عن الشخص الوحيد الذي كان قريباً

Twitter: @ketab_n

منا، لقد فكرنا فيه خلال لحظات قصيرة يائسة من طفولتنا وكبرنا بقربه كما لو كان ذلك هو المرتقب منا، ولا شيء أكثر، تربطنا بالأخ صلة لا تسمى، تتجاوز العلاقة البسيطة بالعائلة وبالسُّكْنَى.

ـ وبها؟ ماذا يربطنا بها؟ ما الذي ربطنا بها خلال تلك الأعوام كلها؟

ـ ما يربطنا بها هو الحقد.

ـ لكنها لم تكن تكرهنا، أنا متأكدة من ذلك.

ـ ليس كرهاً لأسمائنا وأجسادنا. إنه كره لكل ما يمكن أن يدل على تغيير أو تناقض إزاء ما تم اعتباره دائماً وخالداً.

ـ لكننا لا نكرهها. إننا نحقد عليها حقداً وضعته هي بنفسها في أعماقنا.

ـ لست أدري. لا أستطيع القول: «أكرهها» وأكون واثقة من ذلك، تماماً.

أتذكر تفانيها، حيويتها التي وظفتها فينا، ولا أستطيع الإدعاء بانعدام الحنان في أية حركة من حركتها. تفانيها من أجل جعلنا أفضل لا يمكن له ان يكون خالياً من الحب.

ـ كنت أسمعها عندما تقضي ليالي بكاملها قرب سريرك دون أن تنام، معتنية بأمراضك.

ـ كنت أستيقظ في أنصاف الليالي، مختنقة، فأراها تدخل إلى غرفتي مكروبة تقريباً، لكن ذلك كان في طفولتنا.

Twitter: @ketab_n

ـ طفولتنا انتهت لتوها.

ـ هنا في هذا البيت، نحن نكبر دفعة واحدة. ليس كما في البيوت العادية التي يهرم سكانها بهدوء، تدريجياً. ذات يوم، ومن دون علامة واحدة، ومن دون أن يكون يوماً متميزاً، أو يوماً منتظراً، ذات يوم ينقض الزمن علينا، يقلصنا، يشيبنا، ضارباً أجسادنا.

ـ لهذا تبدو لنا طفولتنا الآن بعيدة جداً.

ـ هنا لا يمر الوقت بهدوء وسلام، نحو الموت، إنه يجتاحنا. يجتاح هذا البيت وهذه الممرات وهذه الغرف مثل فيضان، ثم يحملنا ويحطمنا.

ـ اليوم، هو يوم من تلك الأيام.

ـ لقد ضربها الزمن وحطمها وقضى عليها فوق الكرسي الذي كان يجلس عليه الأب. لم تسبق لي رؤيتها هرمة بتلك الدرجة.

ـ في هذا البيت، ليس الزمن هو الذي يحطم، بل الحقد، الحقد الذي يدعم الجدران التي أكلها الملح والروافد المتعطنة، ثم ينقض فجأة على السكان ويفرغهم من قواهم.

ـ ربما لم يكن الحقد، بل اعتناؤها بتربيتنا، هو الذي جعلها تهرم، ربما كان جهدها في تربيتنا بمفردها، رغم الجميع ما عدا الأخ رغم ذكرى الأب الذي لم يكن ليقبلنا في هذا البيت؟ وربما كان ذلك بسبب تحملها لكل ثقل البيت على كتفيها الضيقتين؟

Twitter: @ketab_n

بيت، لم يكن يستحق العناء لجعله يستمر، لو لم نكن فيه، لأنه، من دوننا يبلغ نهايته الطبيعية، أما بوجودنا فقد توجب جعله يستمر ويدوم.

ـ حملت هذا البيت على ذراعيها طيلة ثمانية عشر عاماً، من أجل هدف وحيد.

ـ نحن.....

ـ نعم، كان ذلك لتخليد اسم الأب.

ـ لا أهمية لذلك. نحن أحياء والأب مات. نحن النتيجة.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلا شك اننا هزمناها مرتين. مرة في ما كانت تريد تخليده، وأخرى في ما تعلمت حبه.

ـ لا أعتقد أنها أحبتنا ذات يوم، لا أعتقد أنها تحبنا اليوم.

ـ أنا، الآن، لم تعد قادرة على حبي.

ـ انت أيضاً تريد ان تحول ذلك إلى خطأ؟

ـ كلا ليس إلى خطأ. ولا إلى تضحية أيضاً.

ـ لا يتعلق الأمر بتضحية. وما من أحد أطلق هذه التسمية، إنها حقيقة، هذا كل ما في الأمر. حقيقة كافية لتحريرنا. لقد حسم الصراع، أخيراً، وانتهى.

ـ ليس هذا كل شيء. أعتقد أنه لا يزال هناك الكثير، لقد ربينا

Twitter: @ketab_n

مثل أدوات لكننا أحياء، وعلى قدر من الإنسانية، لم يجفف الحقد جلودنا.

ـ جلدي لم يشارك في شيء. لم أكتشفه عندما وهبت جسدي. لم يتسبب جلدي في أي شيء. أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

ـ وما من شيء تم إعداده بالمقابل، لم يكن ذلك ناجماً عن ثأر نضج ثم نُفِّذ.

ـ كلا. إنه حقيقة. وليس مجرد ذريعة أيضاً.

ـ ولا تبرير.

ـ كلا.

ـ إذن، إذن؟

ـ هل يتوجب إثارة الموضوع مجدداً؟

ـ نعم.

ـ نحن لا نحاكم الأخت بل نتقبلها. كما نتقبل بعضنا البعض. نحن لسنا ثلاثة. إننا واحد فقط.

ـ من المفترض ان أقدم تفسيراً لكني لا أملكه.

ـ لا حاجة للتفسير.

ـ لست أطلب تفسيراً، لكني أريد التيقن من صحة ذلك.

ـ لا يمكنني القول إن كان صحيحاً أم لا. كان محتوماً؛ هذا ما أعرفه، كان محتوماً

Twitter: @ketab_n

ـ الحقيقة هي أننا إذا لم نتكلم الآن فإن الحقد سوف يستولي علينا، عندئذ ننهزم بدورنا.

ـ في كل الأحوال. نحن مهزومون.

ـ نعم، في كل الأحوال.

Twitter: @ketab_n

الفهرس

مقدمة: غابرييل غارسيا ماركيز ٥
تقديم المترجم ٧
الجنود ١١
الأخت ٤٣
الأب ٧١
القرية ٩٧
المرسوم ١٠١
الخميس ١٠٣
الجمعة ١١١
السبت ١٢١
الأخ ١٢٥
الأطفال ١٣٩

Twitter: @ketab_n

ألفارو سيبيدا ساموديو

البيت الكبير

ترجمة
محمد علي اليوسفي

هذه الرواية كتبت في مبنى خشبي تشرف نوافذه الستّ وشرفته، المزينة بأصص مغبرة على محطة السكة الحديدية التي اقترفت فيها المجزرة. رغم ذلك، لا يوجد في هذا الكتاب ميت واحد!

غابرييل غراسيا ماركيز

Powered by AZIZ HUMAID STUDIO